جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية الدراسات العليا

ترجمة الصفـــحـــــات من (1 - 51) من رواية (الــــمـــــئـــــذنـــــه)

لمؤلفتها: ليلى ابو العلا

Translation of the pages (1 - 51) of the Novel Entitled: (Minaret)

By: Leila Aboulela

Partial research to get a master degree in Translation

بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير الآداب في الترجمه

إعداد الدارسه:

آلاء علي محمد عمر .

إشراف:-

د. تاج السر حسن بعشوم .

2017 م

استهلال

قال تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

صدق الله العظيم

سورة البقره الآيه (216)

الإهداء

إلى أبي وأمي الغاليِيْن، إلى إخواني الاعزاء

أهدي هذا الجهد .

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل بعد شكر الله سبحانه وتعالى والثناء عليه ، إلى كلية الدراسات العليا بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا والتي أتاحت لي الفرصه لاتشرف بأن اكون أحد طلابها ، والشكر لكافة أساتذتي الأجلاء في الدراسات العليا بمقاماتهم الرفيعه والذين استفدت من تقديرهم وأدبهم قبل علمهم ، وأخص منهم بالذكر **الدكتور / تاج السر حسن بعشوم** والذي هو بمثابة الاب عندي وله دور كبير في تبصيري بأساليب الترجمه ، فالشكر له على ماقدم وتقبله بالإشراف على هذا البحث وزاده الله علماً ورفعه، والشكر لإخواني وزملائي وأصدقائي الذين كانوا لي سندا وعوناً في مسيرتي التعليميه ولزملائي الذين شاركوني في ترجمة هذه الروايه. واود ان لا انسى كل من ساعدني ووقف معي سواء أن كان من قريب أو بعيد ولكل من كان صادق العهد والوعد فلكم وافر التقدير وأكيد الشكر والاحترام.

مقدمة المترجم

بسم الله والحمدلله الذي له مافي السموات والارض ، والصلاة والسلام على أشرف سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

هذه ترجمة للصفحات من (1 -51) من كتاب المئذنه لمؤلفتها الروائية العالمية ليلى فؤاد ابو العلا وهي رواية أدبيه كُتبت في العام 2005م تُروى عن بطلتها نجوى والتي كانت في بداية عهدها من بيئة أرستقراطيه وأسرة غنية مُنفتحه تتمتع بمباهج الحياة في الخرطوم، وبعد انقلاب سياسي تم اعدام والدها ومن ثم نفيها وأسرتها إلى لندن، ثم انقلب الزمان عليها وتم ارسال أخيها التوأم إلى السجن بتهمة المخدرات وأضحت خادمةفي لندن ، ووجَدَت الرفقة والسلوى في المجتمع الاسلامي ثم وقوعها في الحب عند فرد في بيت مخدميها.

والذي دعا الباحث إلى ترجمة هذا الكتاب هو نقل الحضارة مابين الشرق والغرب وتبادل الثقافه وتسليط الضوء على حياة المهاجرين والمسلمين ومدى معاناتهم خاصة لدى فئة النساء.

اعتمدَ الباحث في ترجمة صفحات هذه الرواية على العربية الفصحى ولم يقم بترجمتها للعامية السودانيه على الرغم من أن ابطال الرواية سودانيين وتقع جزء من أحداثها بالخرطوم ، وذلك حتى يتسنى للقراء في كافة أرجاء العالم من فهمها وإستيعابها وهو من التحديات الكبيرة التي واجهت الباحث ، اذ أن الكاتبه قامت بصياغة أحداث الرواية بلغة انجليزية قُحه مما تَطَلب من الباحث إرجاعُه للغة العاميه ومن ثَم ترجمته وعكْس ثقافتنا السودانيه باللغة العربية الفصحى .

يجد القاريء ترجمات لعبارات عامية سودانيةقد تُرجمت إلى الفصحى وشرحَ الباحث معناها بين قوسين فعلى سبيل المثال لا الحصر كلمة**برش (حصيرة تُصنع من جريد النخل)** فهي معروفة لدينا ككلمة عامية وكان لزاماً على الباحث شرحها حتى يتسنى لكافة القراء فهمها.

من العوامل المهمة التي واجهت الدراسه هي العامل الزمني ، فالأحداث قد حدثت في حقبة تاريخية في الماضي ، والروائية تقوم بسرد الرواية باستخدام أفعال الماضي فكان لزاماً على الباحث أن يتنبه في ترجمته لذلك السرد وتلك الحقبة من الزمن.

لقد بذل الباحثجهداً جباراً في محاولة لنقل وصف المؤلفة الدقيق والذي تمتاز به بصورة رائعة في سردها للقاريء وفهمه واستيعابه بصورة تجعله يتعمق في سبر أغوار القصه ويجول في معانيها.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد المتواضع للذين يدرسون في مجال الأدب من الطلاب والطالبات وأن ينفع به كل راغب إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفهرس

الموضوع	الصفحات
استهلال	أ
الإهداء	ب
شكر وعرفان	ج
مقدمة المترجم	د – ه
الفهرس	و
بداية الروايه	1 - 4
الجزء الأول الخرطوم (1984 – 1985م)	5
الفصل الأول	6-13
الفصل الثاني	14- 23

الفصل الثالث	33-24
الفصل الرابع	38-34
الفصل الخامس	43-39
الفصل السادس	49-44
ملحق	النص الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

لقدجار َعليَ الزمان، وإنتهى بي الأمر إلى مكان سقفهُ مُنخفض، ليس به مساحة تكفي للكثير من الحركه. كنتُ مُعتادةً على مثلِ هذه الحالة من الضيق والضجرفي كثير من الأوقات. كنتُ على مايُرام في كثير من هذه الأوقات. راضيةً بقدري دون تذمر أو ضجر أو ندم ولا آسى على أمر قد قضى. بيْد أن تحولاً ما في بعض الأحايين يجعلني أتذكر. يتغير الروتين الموحش، وتجعلني أي َبداية جديدة أُدركُ فجأة ما صرِرتُ عليه... واقفة في طريق مُغطى بأوراقِ الخريف، يُؤدي إلى متنزه تحفُه أشجارٌ مصفوفة بعناية وكأنها قد فُرِكَت بالفضة والنحاس من شدة لمعانها. جلتُ بناظري فرأيت مئذنة مسجد "ريجنت بارك" عالية فوق الأشجار. لم أرها أبداً من قبل في هذا الصباح الباكر وتحت ذلك الضوء الخافت. تبدو لندن في أجمل حُلتها عند فصل الخريف. في الصيف تكون المدينة قذرة ومكتظة وبالية لمسالُها على غير عادتِها، وتطغى عليها في الشتاء أضواءُ عيد الميلاد. وفي الربيع، والذي يُعرف بموسمِ الحياه،فدائماً ما يكون هنالك خيبةُ أمل. إنها الآن تبدوفي أجملِ ما تكون. تقف منتصبة متوازنة كامرأة ناضجة تضج أُنوثة ،وإن لم يعد جمالها بذلك العنفوان، بقي تأثيرُه فعالاً بصورةٍ تَخلِبُ الألباب .

تخرُجُ أنفاسي كالدخان. وأنا أنتظر طرْق جرس الشقة, والتي رقمها مُسجل عندي في مفكرة صغيرة أحملها. حددتْ لي الساعة الثامنة بسَعلْت، وأخشى أن يُداهمني السُعال أمام مُخَدمتي الجديدة، فقد تكون سيدةً قَلقَة من إمكانية أن أنقل الجراثيم المُعدية لطفلها. ولكن ربما قد لاتكون من النوع القلق ، فإنني لم أتعرف عليها بعد. رأيتها فقط للمرة الأولى في الأسبوع الماضي عندما قدمِتْ للمسجد باحثةً عن خادمة. كانت تحوم حولها هالة من التعجل والتسرع. يزين رأسها وجيدها شال حريري ملفوف بلا كبير اكتراث. وعندما يقع من رأسها مبديا شعرها , كانت لا تأبه لوضعه على رأسها مجددا. نوع معين من النساء العرب- طالبه ثريه- في أواخر العشرينات من العمر تأخذ احسنَ ما يُمكن اخذُه

من الغرب ... ولكنني ما زلتُ لا أعرفُها بعد. لم تكن في حالتها الطبيعية عندما كانت تحادثُني. قلما يكون الناس في حالتهم الطبيعية وهم في المسجد. حيث يكون الناس فيه هادئين وخاشعين...مغمورين بالجانب المُرِق والمُهمَل من أنفسهم.

أتمنى أن لا تكون قد نسيتْني. أتمنى أن لا تكون قد غيرتْ رأيها، ووضعتْ ابنتها الصغيرة في حضانةٍ للأطفال،أو عثرَت على شخص آخر غيري. وإنني أتمنى أيضا أن لا تكون أمها التي كانت – وإلى الآن- جليسة لطفلتها قد مددتْ فترة إقامتها في بريطانيا، وبذا يصبح وجودي غير ضروري بالنسبة لها. إن شارع **سانت جون وود** السريع مُزدحم بالماره.. رجالٌ في كاملِ أناقتِهم، وفتيات يرتدين آخر خطوط الموضه ويدلفن إلى سياراتهن الجديدة ويقُدنها إلى أماكن عملهن المريحه. إن للأناقة افتضاح

وكذلك رغَدُ العيش الذي يغمر الثراء به الناس. أحن إلى ذكرياتي القديمة بيْد أني لا أفتقد ما كنت أملكه. لا أرغب الآن في اقتناء معطف جديد، لكنني أتمنى أن أغسل معطفيالقديم غسلاً جافاً بصورة أكثر مما أفعل . كم كنت أود لو أنعدداً أقل من الأبواب أوصد في وجهي...أبواب سيارات الأجرة، وأبواب معاهد التعليم، وصالونات التجميل ووكالات السفر لتأخذني إحداها لحج البيت المعمور...

عندماضغطْتُ على رقم الشقة في جرس التنبيه عند بوابة البناية رفع أحدهم السماعة وذكرْت اسمي بصوتٍ يحفه بالأمل: "السلام عليكم... هذه أنا، نجوى..." . هي تتوقع قدومي... الحمد لله. إن صوت الجرس لمثير، ودفعْتُ باب مدخل البناية والتي أدركْت على الفور أنها بالغة الجمال، كل ما فيها خشبي الصنع، عتيقٌ ومُحافظ عليه، فائق الإتقان، ويمُ عن ذوقٍ راقي. مبنى فخم وجميل وعتيق، يشع منه الرسوخ والمهابة والجلال، وتُدرك وأنت بداخله أن أجيالاً بعد أجيال – حريصة على المال- تَعهدتْه بالرعاية والصيانة الدائمة، وبالحب أيضا... ليس مثل مال أبي الذي صادرتْهُ الحكومة، وبدَده عُمر. لقد كنت غبية أيضاً عندما بدتْ نصيبي ولم أفعل به شيئاً مفيداً .

كانت هنالك مرآة موضوعة في رُدهة المبنىنظرْتُ فيهفلم أرَ غير امرأة تغطي رأسها بطرحة بيضاء ومعطف فاتح اللون لاشكل له، ، ولها عيونبراقةٌ جداً ورموشها طويلة ايضاً . وبالرغم من ذلك فإنني أبدو أليفة وموثوقة بها، وفي عمر مناسب. إذ عادة ما تكون مربية الأطفال صغيرة السن ولامباليه، بينما ستشتكي مربية الاطفال العجوز من آلام ظهرها. لقد كنت في العمر المناسب تماما لذلك.

كان المصعد من ذلك النوع الكلاسيكي القديم الذي يتطلب أن تجذب بابه وتدفعه بقوة. صلصل صوته مخترقاً هدوء ذلك المبنى الأنيق. مدتْ يدي لأضغط على زر الطابق الثاني لكني وجدت أنه مكتوب على الزر الأول من 1 - 3، والزر الثاني من 3- 4 والزر الثالث من 4 – 6حاولت فهم الأمر ، وبقيت أُحدق في الأزرار ولكنني مازلت في حيرة من الأمر.قررْتُ الخروج من المصعد وصعود الدرج سمعْتُ صوت باب يُغلق بشدة في الطابق الأعلى، وصوت خطوات أحدهم وهي تنزل الدرج مسرعة. وقع نظري على القادم المسرع فإذا هو شاب طويل القامة ضخم البنية مجعد الشعر، بدأتْ شُعيرات لحيته في الإنبات. استوقفته لأسأله عن أزرار المصعد التي حيرتني.أجابني بلسان إنجليزي مُبين، وكأن الإنجليزية لغته الأم،بأن الأرقام في أزرار المصعد هي أرقام شقق المبنى، وليست أرقام الطوابق كما ظننْت. لم تكن لهجته هي اللهجة المحلية، بيْد أنه من الصعوبة التكهن على أصول الناس من لهجاتهم في لندن. فلو كان سودانيا، فسيعد من "فاتحي البشرة"، بيْد أن لا دليل لي على أنه سوداني.

ردتْ عليه شاكرة ولُما مُبتسمه، بيْد أنه لم يرَد على ابتسامتي بمثلها، وعوضاً عن ذلك كرر ما قاله آنفا: "ما عليك إلا أن تضغطي على رقم الشقة التي ترغبين في الذهاب إليها".نظرتُ في عينيه فوجدتهما

في لون العسل السائل، تلمعان...ولكن ليس بالذكاء (كما عينا أنور)، بل تلمعان بسرعة البديهة. ربما يكون شاباحساساً ، ولكنهليس ذكياً بصورة خاصة... ليس نبيهاً ولا متسرعاً كشباب اليوم.

شكرتُه مجدداً فخفض من رأسه قليلا وهز كتفيه ليُصلح من وضع أشرطة حقيبته. ذكرتُ مثلاً يقول بأن المرء يمكنه أن يشتم رائحة الجنة عند الصغار. عندما دفَ نحو باب المبنى وخرج عاد كل شيء إلى وضعه المعتاد.

صعدْتُ للطابق الأعلى وفتحت باب المصعد لأخرُ ج على سجاد أنيق بالغ النظافة، وأخطو – يحدوني أمل كبير- نحو الشقة المقصودة. سوف آخذ البنت الصغيرة للميدان عبر الشارع. سآخذها للمسجد، وسأضبط وقتي علىذلك حتى أُ درك الصلاة مع الجماعة، ومن بعد ذلك أطعم البط في "ريجنت بارك"! من المحتمل جداً أن يكون في الشقة تلفزيون يلتقط القنوات الفضائية، وسيمكنني مشاهدة فيلم مصري على قناة أي آر تي، والأخبار على قناة الجزيرة. وفي الاسبوع المنصرم قد سمعت مقولة لأحدهم,لمستَ ْ شِغاف قلبي وعقلي كان يتحدث في محاضرة عامة جاء فيها: "إن رحمة الله محيط واسع، وخطايانا هي قطعة طين صغيرة بين منقاري حمامة. تقف تلك الحمامة فوق غصن شجرة على حافة ذلك المحيط. ما عليها إلا أن تفرج عن منقاريها".

الجزء الأول

الخرطوم (1984 – 1985م)

الفصل الأول

صـرخْت فيه وأنا أهز يده الملقاة على وجهه وتغطي عينيه: "يا عمر....هل صحوت؟"

"همممم"..

صـرخْت فيه مجدداً مطالبة إياه بالاستيقاظ؟ كانت غرفته لطيفة البرودة...ولا غُرو في ذلك فلديه أفضل مكيف هواء في البيت.

ردّ في تكاسل: "لا أستطيع الحركة"، وأزاحَ يده عن وجهه وغمز لي بعينه. أبعدْت وجهي عن رأسه وأنا أفرك أنفي من رائحة فمه الكريهه.

"إن لم تستيقظ فإنني سآخذ السيارة."

" بالجد...لا استطيع ...لا أستطيع أن أتحرك".

"حسنا. سأذهب إذاً من دونك". مشيت إلى أبعد نقطة في غرفته متخطية خزانة ملابسه وصورة كبيرة لمايكل جاكسون. أغلقتُ مكيف الهواء، فتوقف عن الأزيز، وعم الحر ارجاء الغرفه. وانتظرت أن يقفز من فراشه ليشغله مرة أخرى.

"لم تفعلين ذلك بي؟"

رددتُ عليه في جزل وأنا اضحك: "الآن ستُجبر على النهوض".

تناولتُ الشاي مع بابا في الطابق الأرضي. كان يبدو – كعادته-رائعاً عند الصباح، نظيفاً، حليقاً متعطرا.

سألني متذمراً : "أين أخوك؟"

"ربما يكون في طريقه للنزول"

"أين أمك؟"

"إنه يوم الأربعاء. اليوم الذي تذهب فيه أمي للرياضة". كنت أستغرب دوما من تعمد أبي لنسيان برنامج والدتي، وكيف كانت نظرات عينيه تبدوان خلف نظاراته حذرتان غامضتان عند الحديث عنها.

كان قد تزوجها وهي من طبقة أعلى منه آملا في تحسين وضعه الاجتماعي. وتكمن قصة حياته في أنه ترقى في المناصب مع مرور الأيام من وظيفة متواضعة إلى أن غدا مديراً لمكتبِ الرئيس بفضل هذا الزواج من تلك العائلة العريقة الثرية. لم أكن أود أن اسمع منه اعترافا بذلك، فهذا الأمر يُربكني. كنت شديدة الشبه بأمي في أمور كثيرة.

تمتمَ والدي وهو يرتشف كوب شايه: "أنتم مدللون أكثر مما يجب. ثلاثتكم".

"سأخبر أمي بما قلت عنها الآن!"

رد عليّ بحركة في وجهه تدل على عدم الرضاء، ثم أضاف: "هي ليست صارمة بما يلزم أمام أخيك. و إن ذلك سيفسده أكثر. عندما كنت في مثل سنه كنت أعمل ليل نهار...كانت لدي أحلامي وطوماحاتي...".

خطر ببالي (دون أن أنبس ببنت شفه) أن أقول: "يا إلهي... ليس مجددا". أدركتُ أن ما دار في خلدي قد بان بوضوح على وجهي، فرد قائلاً :

"بالطبع لا تريدين أن تستمعي لي".

"لا يا بابا. أنا آسفة". حضنتهوقبلتُ خديه. يا لروعة رائحة عطرك.

ابتسم وقال ليمشيراً لماركة عطره الفرنسي الثمين: "باكو رابانا"..وضَحِكْت أنا.

كان أبي بالغ الاهتمام بملابسه وعطره أكثر من أي أب آخر عرفته.

"حسنا. حان آوان الذهاب للعمل". وبدأ في طقوسه المعتادة عند المغادرة. ظهر خادم المنزل من المطبخ وحمل حقيبتهُ إلى السيارة. قفز موسى، سائقه، من حيث لا يدري أحد وفتح باب السيارة لأبي.

وقفتُ لمشاهدتهما وهما يغادران، ولم تبقَ في المنزل غير سيارة التايوتا كورولا الصغيرة في درب سيارات البيت. حتى الشهر الماضي كانت تلك هي سيارة أمي، ولكنها الآن صارت ملكاً لي ولأخي عمر. صار لأمي سيارة جديدة، وتوقف عمر عن استعمال دراجته النارية.

جُلت بنظري في حديقة المنزل وفي الشارع خلفها. لم تكن ثمة دراجات هوائية في الشارع. كان لي "معجب" يجوب شارع منزلنا لأكثر من ثلاث أو أربع مرات في اليوم آملا بالطبع في أن يراني خطفا. كنت أحتقره. ولكن عندما يخلو الشارع – كما هو الحال الآن-فإنني كنتُ أصاب بشيء من خيبة الأمل.

صحتُ لعمر من الطابق الأرضي : " هيا ياعمر! سنتأخر عن محاضرتنا".

عند بداية الفصل الدراسي كنا نصل مبكرين للجامعة، بل ونكون أول الواصلين وقد إعتدنا على ذلك. وبعد مرور ستة أسابيع على الفصل بدا أنه من الحذلقة (أو كما يقول "زملاؤنا الذين سبقونا في الجامعه") أن تدخل قاعة المحاضرات عندظَرِ دقيقه.

كان المحاضرون يأتون للمحاضرة بعد مرور عشر دقائق من توقيتها،وقد راجَ هذا التصرف في أرجاء القاعات، ويدَعون الطلاب جميعاً يتَرقبون وصولهم.

لم أسمع أي استجابة لمناداتي لعمر، فهرولْتُ إلى الطابق العلوي.لا...إنه ليس في الحمام،فهو خالٍ. فتحت غرفة عمر فإذا هي – كما هو متوقع-كالفرن. رغم ذلك فقد كان منبطحاً على السرير كما تركته غارقاً في النوم وهو يشخر بصوت عال. كان قد قذف بأغطية السرير على الأرض بسبب الحر، وغط في النوم والعرق يتصبب منه.

"إن كان الأمر كذلك، فأسقود السيارة بمفردي. لست بحاجة إليك".

تحرك قليلا وقال في فتور بائن: "ماذا؟"

كان صوتي ينبئ عن الغضب، لكني كنت أيضاًخائفة وجِلة. خائفة من نومه الكثير دونما مرض ظاهر، وخائفة من فتوره وتبلده الذي لا أستطيع مناقشته مع أحد من الناس.

"أين المفاتيح؟"

"ها؟"

"أين مفاتيح السيارة؟".. وفتحْتُ باب خزانة ملابسه.

"لا. المفاتيح في جيب بنطالي الجينز...خلف الباب".

سحبتُ المفاتيح بسرعة، ومعها سقطَتْ بعض العملات المعدنية، وصندوق سجائر "بنسون آند هيدجز".

"سترى ما سيفعله بابا إن علم بهذا"

"أعيدي تشغيل المكيف"

"لا"

"من فضلك يا نانا".

كان لاستخدامه "اسم الدلع" المفضل لي، فعل السحر، فرقّ قلبي لحاله قليلا، واجتاحتني عاطفة التوأم ، وللحظة عابرة كنت أنا الناعسة المتعبة الساخنه. أعت تشغيل المكيف مرة أخرى وخرجْتُ من غرفته.

رفعْتُ زجاج نافذة السيارة لمنع الغبار والهواء الحار من الدخول وإفساد تسريحة شعري. كم كنت أتمنى أن أشعر بأنني طالبة شابة متحررة تقود سيارتها في ثقة. ألم أكن طالبة شابة متحررة تقود سيارتها للجامعة؟ في الخرطوم قلة فقط من النساء يقدن السيارات، وعدد الطالبات في الجامعة يقل عن ثلاثين بالمائه من عدد الطلاب الكلي. يشعرني كل ذلك بالاعتزاز – على نحو ما – بنفسي. رغم ذلك فإنني أفضل أن أكون بجانب عمر في السيارة. افتقدته الآن.

قدتللسيارة ببطء وبحرص ٍ زائد عند الإشارات والتقاطعات، وكنت أحرص ما أكون على أن لا أمسَ سائق أي دراجةٍ هوائية في الطريق. وفي شارع الجمهورية، وعند وقوفي أمام إحدى إشارات المرور طرقَتْ زجاج سيارتي بنت صغيرة ، منحنية الرأس ومزغللةُ العينين. تطلب إحسانا. لأني كنت وحيدة في السيارة فقد أعطيتها ورقة مالية، ولو كان معي عمر لأعطيتها عملة معدنية- كان يكره الشحاذين. قبَضَتْ بيديها على ورقة الخمس جنيهات وهي تكاد لا تصدق، وأسرعَتْ مهرولة نحو الرصيف. عند تغير الضوء إلىاللون الأخضر واصلْتُ مسيري. من مرآة الرؤيه الخلفية لسيارتي رأيت تلك المتسولة يحيط بها ثلة من صغار الشحاذين وبعض من الكبار أيضا. أثار إحساني الغبار والعراك فيما بينهم.

كانت يداي متعرقتين عندما طرقت باب قاعة المحاضرات101. كنت متأخرة بنحو خمس عشرة دقيقة. وأنا خارج القاعة كنت أستمع لصوت ديشير وهو يُلقي محاضرته في فصل آخر من كتاب مادة المحاسبة، أبعد المواد عن قلبي، ولكنها رغبة الوالد في أن يدرس عمر إدارة الأعمال، وبعد سنوات من الدراسة في رفقة البنات، أردتُ أن أكون في رفقةِ عُمر. طرقْتُ باب قاعة المحاضرات مرة أخرى، وبصورة أشد، وجئتُفي نفسي الشجاعة لأُدير مِقبض الباب. وجدته مغلقا. إذن فقد كان د. بشيرمحقاً في اعلانه بحرمان كل من يأتي متأخرا للمحاضرة من الدخول للقاعة. استدرت ووصبت وجهتي نحو المقصف (الكافتيريا).

كان مقصفي المفضل يقع خلف مباني الجامعة يطل على النيل الأزرق، والذي لا يُمكن رؤية مياهه من الجامعة من شدة كثافة الأشجار. هدأ ظل الصباح الرطيب ورائحة أشجار المانجو مما كان يدور في خلدي. جلسْتُ على أحد المقاعد وبدأتُ بالتظاهر في قراءةمذكراتي. لم تكن تعني لي تلك المذكرات شيئاً ، بل ملئَت نفسي بإحساس عريض بالفراغ. مضيتُ أتنبأ بالساعات الطوال والتي يجب علي أن أقضيها

محاولة حفظ كل تلك الأشياء التي لا أفهم تماما معناها. عندما رفعت رأسي تبين لي أن أنور السر يجلس خلف الطاولة المجاورة. كان في سنته الاخيره بالكلية، مشهوراً بالذكاء، فلم يكن يتحصل على تقييم أقل من ممتاز في كل المواد التي درسها. إنه اليومجلس وحيداً يرتشف كوباً من الشاي ويدخن سيجارة.وفي المجمع حيث معظم الطلاب بائسين, كان دائما ما يتميز من دون بقية زملائه الطلاب بأنه يحرص على لبس قمصان نظيفة، ويحلق شاربه، ويقص شعره قصيرا رغم أن "الموضة" في تلك الأيام كانت هي الشعر الكثيف. كان أخي عمر يدَع شعر رأسه ينمو على طريقة مايكل جاكسون في صورته على غلاف البومه الغنائي الشهير "خارج الجدار".

كان أنور السر عضواً في الجبهة الديمقراطية (وهي الجناح الطلابي للحزب الشيوعي). لعله كان يكرهني، إذ سمعته يتحدثمهاجماً في ندوةطلابية البرجوازيين، ويسلقهم بلسانٍ حامي. كان يُلقي باللوم على الأرسقراطيين ومُلاك الأراضي والرأسماليين لِما حاقَ بالبلاد من خراب وفساد وفوضى عارمه. حاولْتُ الحديث مع عمر حول تلك الأقوال، فقال لي عمر بأنني "جعل الموضوع شخصياً" بأكثر مما ينبغي. لم يكن لعمر وقت يقضيه في الحديث عن أنور السر وأمثاله. كانت له شلته الخاصة من الأصدقاء. كانوا يتبادلون فيما بينهم شرائط الفيديو لأفضل أغاني البوب الغربيه، ويأملون في السفر لبريطانيا يوما ما. كان عمر شديد الإيمان بأن وضع السودان كان أفضل بكثير تحت الحكم البريطاني مقارنة بالحكم الوطني، ويأسف أشد الأسف على خروجهم من البلاد. كنت حريصة على أن لا أدعه يكتب أي من هذه الأفكار في مقالاته الجامعية في مادة تاريخ الإقتصاد. كان سيرسب بالتأكيد، إذ أن كل الكتب والمحاضرات تُجمع على أن الإستعمار هو أسّ البلاء وسبب تخلف التنمية في بلادنا.

كنت سأبدو صبيانية سخيفة إن قمت من مكاني، بيْد أنني لمأشعر بالارتياح لجلوسي مُقابلةً لأنور. تبسم في وجهي، وكانت تلك مفاجأة لي. ظلّ ينظر في وجهي. أحسسْتُ ببلوزتي تضيق، وبوجهي يسخن. لابد أنني عبرت عن ضيقي بإطلاق صوت زفير عالي فباغتني قائلا: " الجو حار. أليس كذلك؟ وأنت معتادة على مكيفات الهواء بالطبع". أحسستُ بأنه يحاول إغاظتي بكلماته تلك. رغم ذلك تضاحكْتُ وأجبته في صوت بدا غريباًحتى على أذُني بأنني على كل حال أُفَضل الحر على البرد.

رد على بسؤال آخر وهو يُلقي بعقب سيجارته على الأرض ويغطيها بقدمه بالرمل في حركة لطيفة: "لماذا؟"

"إن الحر "طبيعي" أكثر" أليس كذلك؟" كانت هنالك طاولتان تفصل بيننا ونحن نتبادل الحديث، وتسلّلتُ في نفسي عمّن سيقوم أولا بالقيام إلى طاولة الآخر.

رد قائلا :"هذا يعتمد بالطبع على المكان. فالشخص في روسيا مثلاً قد يعد البرد هو "الوضع الطبيعي".

"نحن لسنا بروس".

أطلق ضحكة لطيفة وسكتَ بعدها. أصابني صمته بخيبة أمل، وبدأت أفكر في محاولة لإعادة الحياة لذلك الحوار. قلبت في رأسي وبسرعة عدداً من الجمل التي يمكن أن أبدأ بها معه لقطع دابر ذلك الصمت، وخطر لي أن أقول له "سمعت أن لديك أخ يدرس في روسيا" أو "إن مكيف سيارتي لم يعد يعمل" أو "هل تعلم أن د. بشير لم يسمح لي بالدخول لمحاضرته". عزفت عن استخدام أي من تلك الجمل، فقد بدت لي أنها سخيفة أو غبية أو غير ملائمة. رانَ الصمت علينا حتى كدت أسمع صوت قلبي يخفق بأعلى من أصوات الطيور. فجأة نهضْتُ من كرسي وغادرتُ المقصف دون أن ألتفت إليه أو أودعه بكلمة. كانت الساعة قد قاربت العاشرة، وهو موعد محاضرة مادة "الإقتصاد الكلي". مرر المحاضر ورقة الحضور فكتبت اسمي، وأخرجت قلما آخر وكتبت به اسم عمر بخط حاولت أن يكون مختلفا.

خرجْتُ بعد انتهاء محاضرة الاقتصاد الكلي لأجد عمر في انتظاري.

"اعطني مفاتيح السيارة"

"هاك, ولاتنسى بأن هنالك محاضرة في التاريخ عند الثانية عشرة ، ارجوك دعنا نراك فيها.

عَبَس ومضىمُسرعا في طريقه. إنني قلقة عليه كثيرا. يؤلمني القلق البادي عليه ويعذبني.

عندما كنا صغارا أوصتني أمي برعايته، فأنا كما قالت "البنت الهادئة الرزينة الحساسه, قومي برعايته". وظللْتُ منذ ذلك الحين ومع مرور السنين أغطي على أخطاء عمر وأحس بنقاط ضعفه وأنتبه عليه.

الفصل الثاني

أخرجتُ من حقيبتي المصنوعة من القش محفظة نقودي وكراسة وقلم، ووضعت الحقيبةعلى رفٍ بالقرب من باب المكتبة. صادفت زميلتين من بنات دفعتي يهمان بمغادرة المكتبه وتبادلنا الإبتسامات. لست متأكدة من اسميهما. كانتا ترتديان ثوبين أبيضين، وكانت إحداهما فائقة الحلاوة والجاذبية في وجهها غمازات عميقة، وفي عينيها بريق أخاذ. كانت من فتيات الأقاليم، وأنا عاصمية الميلاد والنشأة، وهذا هو سبب عدم إتخاذي لهما كصديقتين. في حضورهماَ حس – وربما للمرة الأولى في حياتي-اكون واعية لذاتي ولملابسي خاصة بلوزتي الضيقة وتنورتي القصيرة. لم تكن ملابسي تختلف كثيراً عن ملابس كثير من الطالبات الأخريات، فلم يكن في ملابسي غرابة، لكن ملابس طالبات الأقاليم تجعلني أشعر دوماً

بالحرج.كنت مُدركة وواعية لتواضع أذواقهن في اختيار الملابس والمكياج، والثياب السودانية القطنية البيضاء التي يرتدينها لتُخفي نحافة أجسادهن، وتغطي منهن الأيادي والشعر.

كانت الضجة التي تُحدثها المكيفات ومراوح الهواء الصاخبة في قبو المكتبة تملأ المكان. وضعْتُ أغراضي على الطاولة ونظرتُ في رفوف الكتب. هل من كتب روسية أتقرب إليه بها؟ أو أي شيء بامكاني قوله له؟ أم هل من كتاب عن النظرية الماركسية أو لِجَدَلِيه؟ لا . لن أفهم شيئا من هذه المواضيع. أخيراً استقر رأيي على كتاب ضخم يحوي مجموعة من الأعمال الشعرية المترجمة.

فهمت المقطع الذي يقول: "لقد عشت لأدفن رغباتي"، بيد أني لم أعرف من أين أتى هذا الفهم. لقد عشت حياة رغدة سعيدة. والداي يحباني وكانا دوما كريمين معي. نسافر في الصيف إلى الإسكندرية وجنيف ولندن. لم يكن لدي شيء ينقصني أو شيء باستطاعتي الحصول عليه. لم تخب أحلامي يوما، ولم أدفن قط رغبات حياتي، بيد أنني أتذكر أحيانا الألم كجرح قديمبرأتُ منه، وأتذكر الحزن كحلم نسيته بعد أن أفقت.

"أُحب الكُتّاب الروس". هذا ما قلته لأنور في اللقاء الثاني. نعم، كان هنالك لقاء ثاني. لم يكن ذلك اللقاء بمحض الصدفة مثلما كان اللقاء الأول. تمشينا سوياً بقرب مكتب البريد ومكتبة الجامعة.

"من؟"

رددتُ عليه: "بوشكين". لم يبد أنه سرّ بإجابتي.

"أنظري. إن أعطيتك بعض المنشورات، هل تساعدينني على توزيعها؟"

"لا أستطيع. لقد وعدت والدي بعدم التورط في السياسة مع طلاب الجامعة."

هزّ كتفيه مظهراً عدم المبالاة ورافعاً حاجبيه وكأنه يقول: "لماذا لست مندهشاً؟!. وقال :ما هي آرائك السياسية أنت؟"

"لا أدري. ليس لدي آراء سياسية."

"ماذا تعنين بقولك هذا؟"

"يبدو أن كل سياسي يلوم الآخر."

"حسنا. يجب أن تقع مسئولية مايجري على شخص ما."

"لماذا؟"

"حتى يدفع الثمن."

لم يعجبني قوله "يدفع الثمن"

"والدك مقرّب من الرئيس. أليس كذلك؟"

"نعم. وهما أصدقاء كذلك؟"

"هل حدث أن قابلتيه؟"

"نعم. بالطبع.هو يهاتف والدي في المنزل، وكثيراً ما أرد عليه."

قال مبتسما: "هكذا!"

"نعم. ليس في الأمر غرابة. حدث ذات مرة، وقبل سنوات طويلة عندما كنت في المدرسة الابتدائية أن إتصل هاتفيا بأبي في البيت، وقمتُ بالرد عليه قائلة "هالو" بطريقة إنجليزية فُحة. وتخيلتُ نفسي وكأنما استقبل مكالمة في أُذُني مُقلدة نفْسي وأنا اقول "هالو: 44959". سرتني الطريقة التي كان يراقبني بها أنور وأنا أتحدث، وبدا – من نظرات عينيه- أنه كان مستمتعا بحكايتي. واصلت قائلة: "عندها غضب الرئيس وصاح في قائلا: "تكلمي بأدب يا بنت! تكلمي بالعربية."

انفجر أنور ضاحكا. سعدت بأنني أفلحت في جعله يضحك.

"أحب الحديث معك" . قال ذلك ببطء.

"لماذا؟". تلك هي الطريقة لسماع أشياء لطيفة مسلية. قل لي لماذا؟.

بعد مرور سنوات طويلة، وعند التفكر في ما مضى، ومحاولة تذكر علامات التوتر الخفي، والتدبر في السبب خلف ذلك الصفاء، مضيت أتذكر كل الصراعات والشجارات التي عددتُها كشيء مفروغ منه. تقاتلت رائحة الغبار والمجاري، ضد رائحة الياسمين والجوافة ولم ينتصر أحد من المتحاربين. تنحدر مياه النيل الأزرق من مرتفعات أثيوبيا، وتتمدد الصحارى، بيد أن واحد منهما لم ينتصر على الآخر. كان عمر يرغب في الهجرة. ظل عمر ولسنوات يرغب بالمغادره، وظللت أنا – توأمته- متمسكة بالبقاء.

سأل بابا ونحن على مائدة الغداء: "لماذا يهاجر سامر ولا أهاجر أنا؟". كنا نأكل على أطباق صينية وأواني من فضة، ونمسح شفاهنا بمناديل قماش تُغسل وتُكوى يومياً .

أجابت ماما قائلة: "لأن سامر لم يحصل على درجات عالية بما يكفي". كانت قد أتت لتوها من مصفف الشعر، وشعرها مموج على كتفيها. كنت أشم منها رائحة مثبت الشعر والسجائر. لطالما كنت أتمنى أن أكون فاتنةً وساحرة مثلها...منفتحة وسخية، صائبة القول، وتنجح دوماً في قول الشيء الصحيح، وفي الضحك أيضاً ، في الوقت الصحيح. سأغدو مثلها يوما ما.

قلت مؤيدة لعمر: "هل من العدل أن يبقى هنامن تحصَل على درجات عالية، بينما يسافر للخارج من تحصل على درجات متدنية ؟ " , كان سامر ابن لخالنا صالح شقيق ماما، وقد بُعث به لكلية اتلانتيك في ويلز ليحصل على شهادة الباكالوريا الدولية، والتي تعادل شهادة "المستوى المتقدم".

نظر إليَ بابا شذرا وقال: "حتى أنت؟"

أجبنته مطمئِنة: "لا. أنا لا أرغب في الذهاب إلى أي مكان. أريد فقط أن أبقى معك هنا." ابتسمْتُ لماما وبادلتْني الابتسام.

قال عمر ساخرا: "نجوى فتاة وطنية جدا".

ردّ عليه بابا في حزم: "كما ينبغي لك أنت أيضا".

قالت ماما للجميع – ودون أن يعير قولها أحد من الحاضرين- :"فلنأكل الآن ولنتناقش فيما بعد."

قال عمر في ضيق بائن وهو يقصد تماما ما يقول: "أريد أن أسافر إلى لندن. أكره الدراسة هنا."

استطيع قول ذلك من نبرة صوته بأنه يقصد مايعنيه تماما.

ردّعليه بابا: " الدراسة هنا مفيدة لك. اخشوشْنَ قليلاً هنا، وهذا من مصلحتك. لقد أفسدتْك كل هذه المدارس الخاصة التي درست بها لقد رأيتَ بعينك في الجامعة كيف هي حال الآخرين. ستفهم يوما ما حقيقة بلدك، وتُدرك بنفسك بيئة العمل فيه. عندما كنت في مثل عمرك..."

تأوّه عمر متذمرا. وبدأت استشعر ببوادر حدوث ثورة غضب قادم. توقعت أن ينفجر أبي غاضبا، وأن يغادر عمر الدار مغاضبا. إن حدث هذا فسأقضي بقية يومي أسأل عنه بالهاتفباحثةً عن مكان وجوده.

وقفْتُ وحيدةً في مؤخرة الحديقة. مر"معجبي" بدراجته الهوائية. كانت ملابسه قبيحة وقصة شعره بشعه. لم يكن إعجاب مثل ذلك الشاب بي ما يبعث على الإطراء. أحسست بما كنت أحس به دوما من

غضب يزداد في نفسي. لعله كان مسليا أن اغضب منه. عبسْتُ في وجهه لعلمي أن أي تصرف آخر كان سيشجعه أكثر. ابتسم مؤملا بعض القبول ومضى في حال سبيله. لا أعلم عنه شيئا في الواقع.

أقبلَت ماما في ثوب عادي أزرق اللون وصندل أسود عالي الكعب يُصدر قرعا عاليا على رخام مصطبة مدخل البيت، وقالت لي: "تعالي معي يا نجوى". كانت تحمل كيسًا محشواً بالحلوى والمصاصات.

أتى موسى بالسيارة تسير الهوينى فوق الحصى تشق سكون الأصيل. فتح لأمي الباب، ودلف إلى داخل البيت ليُحضر مزيدا من الأكياس المحشوة بملابس قديمة وسطلَيْن ممتلئَيْن بالبسكويت المصنوع في البيت.لاحظْت في كيس الملابس قميص (تي شيرت) كوكا كولا يخُص عمر، وفستان وردي اللون توقفت عن ارتدائه لأنه لم يعد يساير الموضة.

"إلى أين تذهبين؟" سألتها وأنا أدرك من ملابسها العادية أن مشوارها ليس بمشوار مُمتع.

ردتْ وهي تجلس على مقعدها الخلفي في السيارة قائلة: "شيشير هوم". قالت كلمتي "شيشير هوم". بمرح وسرور وكأنه علاج. لا يقدر على فعل ذلك إلا أمي.

ترددتُ قليلا ... تُزعجني رؤية الأطفال البؤساء بعظامهم النحيلة الملتوية. أفْضِل كثيرا أن أرافق أمي عند زيارتها لمدرسة الأطفال الصُم. هنالك تجد الأطفال (وبالرغم من عدم قدرتهم على الكلام بصورة طبيعية) تبدو على عيونهم لمعة الذكاء الحاد، وهم يلعبون ويتسابقون دون هموم أو قيود، ويستوعبون ما لا يسمعون.دلفتُ الى السيارة معها، وعندما بدأ موسى في تشغيل السيارة فتحَت أمي حقيبتَها واعطتْني عَلكة نعناع.

قالت ماما:"ليتكِ رأيتِ "ملجأ الأيتام" الذي أخذتْني إليه خالتك بالأمس. بالمقارنة فإن "شيشير هوم" تُعد جنة .مُتسخ ...مُتسخ بصورة لا تستطيعين تخيلها."

جعلتُ أنفي من فَرْط الاشمئزاز. حمدت الله أنهما زارا ملجأ الأيتام بالصباح، حيث أكون في الجامعة، ولم يجراني معهما.

واصلَتْ الحديث فقالت: "وليس لديهم أي شيء... ولكن هل هذا يُعد عذرا لعدم تنظيف أولئك الأطفال؟."

لم تكن تنتظر مني إجابة. كان موسى يبتسم ويهز رأسه، وهو جالس في كرسي القيادة، وكأنها كانت توجه له الحديث. هكذا كانت. وهذه كانت طريقتها في الكلام. في بعض الأحايين كانت تتكلم بصوت

مُفعم بالحيوية والحركة، وفي أحايين أخرى كانت تتحدث بصوت خفيض هاديء. من الغرابة بمكان أنها كانت في الحفلات والأعراس تبدو رزينة ومهمومة مشغولة البال، وفي ساعات الضيق والكوارث تكون قوية تعلو على الموقف الصعب.أيقنْتُ من حديثها عن ملجأ الأيتام أنها لن تدعه هكذا. ستحاول سحب كل السلاسل المتاحة، وستُلح على أبي، بل وستُلح حتى على الرئيس نفسه حتى تحصل على ما تريد.

وصلنا "شيشير هوم". وجدتها ظليلة ومعتدلة البرودة وتقع في حي راقي. فيها مباني عتيقة وجميلة من طابق واحد فيها حدائق شديدة الخضره. حسدْتُ والدتي على قدرتها في التصرف بيسر وسهولة ودون تعقيد، وعلى "اقتحام" المبنى وفي يدها كيس حلواها وبسكويتها، وسائقها موسى من خلفها يحمل بقية الأغراض. حيتْها الممرضة سلمى كصديقة قديمة. كانت سلمى طويلة سمراء، عظام خدهامُرتَفِعه، وأسنانها بيضاء لامعة. لم يُخفِ زيها الرسمي الرمادي الباهت جمال قدها. بدت سلمى امرأة محترمة معتزة بنفسها تسربت بعض الشعيرات البيضاء لشعرها.

حيتني و قالت لي: "تهانينا على دخولك للجامعة". لم تكن قد رأتني منذ سنوات.

بدأت ماما في الثناء عليها: "لقد حافظْ ت على هذا المكان نظيفا جدا."

"أوه... لقد كانت "شيشير" أفضل بكثير في الماضي."

"أعلم ذلك. ولكنها ما زالت جيدة. لقد زرت ملجأ الأيتام بالأمس وقد كانمُتسخاً ..بمُتسخٍ جداً بصورة لا تستطيعين تصديقها."

"أي ملجأ تقصدين؟"

كانت الغرفة واسعة وبها سبورة سوداء مُعلقة في أحد الجوانب، وعدد قليل من مناضد ومقاعد صغيرة تناسب معأحجام الأطفال. وعلى جانب حوائط الغرفة رُصت مُهودللرضع. كانت هنالك أيضاً بعض كرات وألعاب مبعثرة هنا وهناك. بدت لي هذه الأشياء مألوفة-ربما أحضرتْها ماما معها في زيارة سابقة. عُلقت على الجدران ملصقات تحض على التطعيم وأهميته، وصورة مرعبة عن رضيع مُصاب بالجدري. أحضرَتْ سلمى لأمي ولي كرسيين بينما جلسَت هي على أحد مقاعد الأطفال. تَحلق حولنا بعض الأطفال، وكان بعضهم يحبو بقربنا على الأرض. كان هنالك ولد من جنوب السودان... سريع الخطو، يحوم في الغرفة بحرية وانطلاق بيديه وساق واحدة.

قالت ماما مخاطبة من تحلقوا حولها: "واحد واحد... وسأعطي كل واحد منكم مصاصة." تمت محاولة خجولة لتشكيل طابور منظم، سرعان ما خمدَت وحلّتْ محلها موجة صاخبة من الأيادي الممتدة. أعطتْ أمي كل يد ممتدة حلوى مصاصة.

صاحت سلمى في الولد الجنوبي: "جون! هلا توقفت عن الدوران في الغرفه وأتيت لتأخذ مصاصتك."

أقبل علينا وهو يتنفس بعمقٍمبتسماً مشرق العينين.

سألتْه أمي: "أي لون تفضل؟"

أجاب وعينيه تجولان هنا وهناك، وكأنه يمسح كل ما هو أمامه، أو كأنه يفكر في شيء آخر: "الأحمر."

"هذه آخر واحدة حمراء عندي. خذها. كل البقية صفراء."

أخذ الحلوى وبدأ يفض ورقة المصاصة، وسأل ماما: "هل هذه سيارتك في الخارج؟"

أجابته أمي: "نعم."

وبّخته سلمى: "وما دخلك أنت".

تجاهلها الولد الجنوبي، ومضى يسأل أمي وعينيه مصوبتان نحوها: "ما هي نوع سيارتك؟"

ابتسمت ماما وهي ترد عليه: "مرسيدس".

هز رأسه وبدأ يمص حلواه وقال: "سوف أقود لوري كبير."

ضحكت سلمى من قوله وقالت: "انظروا لهذا الولد الساذج. كيف ستقود لوري؟"

أجاب في ثقة: " سوف أفعل."

رفعت سلمى حاجبيها ساخرة ومستمتعة في ذات الوقت: "بساق واحدة؟."

تغير في ملامحه شيء ما... نظرات عينيه. مضت سلمى تقول: "تحتاج لساقين كي تتمكن من قيادة سيارة." تمحور حول نفسه وجر نفسه للخارج.

قلت لهما:" توجد في أوربا سيارات خاصة للناس الذين ليس لديهم... أقصد للمعاقين". كانت تلك هي المرة الأولى التي تكلمتُ فيها منذ أن وصلنا. بدا صوتي غريبا. تجاهلني الكل.

فجأة بدأ جون يُلقي إحدى المناضد، ويجر مقعدا حول الغرفة، ويخبط به على كل شيء.

صاحت فيه سلمى: "توقف يا جون. لا تكن مشاكسا."

تجاهلها، ومضى يجر في المقعد حول الغرفة. لولا أن ذلك المقعد اصطدم بمقعد آخر لأصاب سلمى إصابة مباشرة.

انتصبتْ سلمى واقفة وقالت: "سأستدعى الشرطة. سيأتون ويوسعونك ضربا."

لا بد أنه صدقها، إذ أنه سكَنَ وتوقف عن الحركة تماما. اتكأعلى الجدار، وبرزتْ للخارج ساقه الوحيدة في وضع غريب، واسند رأسه على الجدار، والمصاصة في فمه...متجمدا في ذلك الوضع الساكن.

تناهى إلينا وسط ذلك الصمت صوت نحيب. كانت صبية في الحادية عشر أو حتى الثانية عشر من العمر. كانت بالغة النحافة مع سماكة بكلا ساقيها ...وترتدي فستانا ورديا أصغر منها. كيف ستتزوج هذه، وكيف ستعمل؟ لا يجب أن نسأل مثل هذه الأسئلة... هكذا كانت تقول ماما. لا فائدة من التفكير في مثل هذه الأمور. فقط يجب علينا أن نداوم على الزيارة.

سألَت ماما سلمى: "لماذا تبكي هذه البنت؟"

" لا أعرف."

"تعالي وخذي مصاصة." نادت ماما البنت الباكية، بيد أنها واصلت البكاء.

صاحت فيها سلمى عاليا: " قومي فورا وتعالي لتأخذي مصاصة."

"دعيها يا سلمي تأتي عندما ترغب." وعندما لم تتحرك البنت، مشت ماما نحوها وأعطتها بعض الحلوى، وربتت على شعرها الأشعث المنكوش. لم يُجدِ ذلك نفعا، ومضت تنتحب والحلوى في يدها حتى قمنا لانهاء زيارتنا. قبل خروجنا لاحت مني التفاتة للبنت الباكية فوجدتها قد هدأت وتوقفت عن النحيب ومضت تفض غلاف المصاصة. وقفَت منحنية وحدقَتْ بعينين نصف مغمضتين، ومخاطها يسيل من أنفها على فمها وهي تُجاهد كي تفض غلاف المصاصة لتصوبها نحو فمها. كنت أظن أن ساقيها هما المعطوبتان فقط ولكن يديها كانتا معطوبتين أيضاً .

الفصل الثالث

كان الحفل في "النادي الأمريكي" فيأوج تألقه عندما وصلْتُ إليه مع عمر. دلفنا إلى قلب المنطقة التي تنطلق منها موسيقى الديسكو والأضواء الزرقاء والحمراء وفرقة الفجوة تصدح قائلة "عفوا سنقلب رأسك رأساً على عقب".

سألتني صديقتي الصدوقة رندا وهى تجاهد كي يصل صوتها لي فوق صوت الموسيقى الصاخبة :"أين كنت؟ رافقيني للحمام."

أجبتها: "ولكني قد وصلتُ للتو." حاولْتُ الاحتجاج والتهرب منها، ولكنها أقبضَتْ بيدها على ذراعي ودفعَتْني خلفَها.

قلت لها: "تبدين رائعة!" كانت بالفعل كذلك...ترتدي "تي شيرت" أسود اللون بشريط محكم على الرقبة، مع تنورة واسعة. لم أبذل نصف جهدها في التزين والتأنق. كان الحمام حاراً كريه الرائحة. وضعَتْ رندا علي شفتيها مادة ملمعة بنكهة الفراوله وأصلَحت من وضع حواجبهالم تنسَ أيضاً أن تنثر حبيبات لامعة على شعرها وعلى كتفيها العاريتين.

"هل ذهبتِ إلى مصفف للشعر؟"

"نعم ذهبتُ لمصففٍ للشعر."

"بنطالي ضيق جداً." لتفتُ بصورة خرقاء حتى أرى أردافي في المرآة.

"بنطالك لا بأس به- كيف دخلتي فيه؟"

"أها..."

"كنت فقط أمزح."

"هل هو هنا؟"

"نعم. سعادته شرف قبل دقيقتين فقط. وأنا هنا منذ السابعة!"

سعادته هو "أمير"، تلك الشخصية الغامضة التى صادَقَتْهُ وتخرج رندا معه منذ نحو ستة أشهر مضت. لقد بدأ يتصرف بطريقة غريبة بعض الشيء في الآونة الأخيرة.

قالت: "الليلة سوف آخذ منه بعض الأجوبة."

تجنبْتُ نظراتها. لقد سرَ ت شائعات بأن أمير قد إتخذ له صديقة أخرى من "النادي العربي". لم أجد في نفسي الشجاعة لأخبر رندا. وعِوَضاً عن ذلك قلت لها: "تبدين رائعةً اليوم."

"شكراً يا حبيبتي."

"فلنخرج من هنا. إنني أكاد أختنق هنا."

"انتظري"... وأخرجَتْ من حقيبتها ما لا يمكن الاستغناء عنه. رذاذ النعناع. فتحتْ فمها وبخّت منه بخّتين. التفتتْ إليَ ، ومع كراهيتي لمذاقه إلا أنني فتَحْتُ فمي على كل حال.

خارج الحمام كان الهواء عليلاً، وكان بعض الأطفال ما يزالون في حوض السباحة. من جهة المطبخ حملَ الهواء رائحة الكباب اللذيذ والبطاطس الفرنسية المقلية.

قلت لها بأني جوعانة.

"هل هذا وقت أكل؟"

أصابتني بعدوى حماسها وشدة انفعالها فمضينا نسير نحو ظلام الحفل المثير متشابكتَي الذراعين ونحن نقهقه في حُبور.كانت الفرقة تشدو بأغنيتي المفضلة "الفتاة السمراء وسط الدائرة" لفرقة "بوني إمز"وبدأْتُ أرددها مع المغنيين. في وسط حلبة الرقص كانت الفتاة الهندية "سنداري" في وسط الدائرة وهي ترقص مع شريكها الجندي البحري، وخصل شعرها الأسود الطويل تتطاير في الهواء نازلة على خصرها وتسقطُ طربانة جزلة. كانت لها طريقة مميزة في الرقص، إذ كانت تتحرك بعيداً عن شريكها في الرقص، وبحركة فُجائية سريعة تعود إليه مرة أخرى. كان شريكها يشبه السودانيين جداً فبإمكانك خِداعه بِسهولة، بيْد أني ورندا قمنا بعمل تحليل عميق عن ذلك الشاب وخلصْنا إلى أنه لابد أن يكون من طريقته في المشي والحركات أمريكياً (من أصل أفريقي)، ولابد أنه هُرِك لهذا الجزء المنسي من العالم الذي بُعث للعمل فيه.

لم يكن علي الانتظار طويلاً طلب مني أحد أصدقاء عمر أن أُراقصه، فتركتُ رندا واتجهْتُ معه إلى وسط دائرة الرقص. انبعثَتْ فجأة من أرضية المكان سُحب دخان أبيض كالتي ظهرَت في فيلم "حُمى ليلة السبت" هُرْتُ في الارجاء حتى تمايلَتْ أقراطي وعدت مارةً بأيدي الراقصين الآخرين.

أتت بعد أغنية "بوني إم" السريعة لسوء الحظ أغنية بطيئة لفرقة "بي جي" هي " كم هو عميق حبك"، وتناقصَت أعداد الراقصين في الحلبة إلى خمسةٍ من الازواج شعرتُ بالحر والظمأ فذهبْت

واشتريْت لنفسي زجاجة بيبسي، وطُفْتُ أبحث عن صديقتي رندا بين الطاولات المتناثرة في المكان، وأنا أحيي من أعرف ب: هاي...هاي. أخيرا عثرْتُ على رندا تجلس على طاولة مع عمر والشاب الجاد دوماً أمير التمعَتْ في الظلام نظارته التي كانت تُخفي عينيه. كانت رندا تبتسم في أمل.

سألَتْه رندا : "كيف هي الحال في الجامعة؟"

أجاب متشدقا" "لا بأس".

سألْتُه أنا: "متى ستحمل تلك المسطرة على شكل تي؟" كان ما يميز طالب المعمار في حرم الجامعة هو حَمله لتلك المسطرة والدوران بها وسط الطلاب.

رد باقتضاب: "العام القادم". كان إملاله من النوع المُعدي! فقدتُ الأمل في أي حديث ممتع معه، واكتفيتُ بصب البيبسي في كوبي، والاسترخاء في كرسيي ومشاهدة الراقصين والراقصات. كان بعضهم يرقص متلاصقاً مع الآخر، بينما كان البعض الآخر يرقص على مسافة ذراع أو نحوه من شريكه. كانت الهندية سنداري وشريكها الجندي البحري من النوع الذي يرقص متلاصقاً - كانت يديه تضمُان خِصرها الصغيرمارةً بِشعرها المُتساقطالمُتدلي إليه.رفعَت رأسها الذي كان يتوسد كتفيه وحركتْه قليلاً لتهمس إليه بشئٍ في أذنه. ابتسَم تصورْتُنفسي أُراقص أنور، بيْد أني لُمْت نفسي ونهيتُها عن فِعل أي شيء غبي. هذا النوع من الحياة هو بالضبط ما يحتقره أنور.. طُرق حياة الغربيين وموسيقاهم. لم أكن قد أخبرْت رندا عنه، فهي لن تفهم. نعم، كانت ستوافقني على أنه وسيم، ولكنها لن تَعُده واحداً منا، وستقول إنه لاشيُبهنا...زِد على ذلك فهو عضو في "الجبهة الديمقراطية"...هى لا تدري معنى كلمة "جبهة"

قدمَ عمر لأمير سيجارة. هبت فجأة ريح في تلك اللحظات اطاحت بمفرش الطاولة. سيحل الشتاء قريباً ، وسنرتدي سترات البرد الصوفية المحبوكة بالازرار، ولن نسبحَ بسبب برودة الماء.

بادرتْنا رندا فجأة بالقول بأنها ستُغادرنا الشهر القادم.

صرخنا أنا وعمر بصورة تِلقائية وبصوتٍ واحد: "ماذا؟" سألناها: " إلى أي مكان ستذهبين؟" وتوالت أسئلتنا تارةً مني وتارةً من عُمر.

لم ينبس أمير ببنت شفة أو يُظهر دهشةًلسفرِ رندا. أجابتنا رندا وهي تواجه أمير (وكأنها تُخاطبه) وترْقُب ردة فعله وتختبرُه:

"سأذهب لإنجلترا لأدرس للمستويات المتقدمه."

"ولكني حسبْت أنك ستتقدمين مرة أخرى لإمتحان المستوى العادي وتحاولين دخول جامعة الخرطوم..."

"يريد أبواي لي أن أسافر."

قال عمر وهو ينظر لأمير آملا في تعاضد أو على الأقل اعتراف بالمفارقة الساخرة: "تماما مثل إبن خالتي سامر. لم ينجح هنا ويريد والداه أن يبعثا به للخارج، بينما نحن عالقون هنا." لم يُبد أمير أي تجاوب من أي نوع.

"يالله يا عزيزتي رندا. نِلي حزينةٌ جداً لسماع هذا الخبر". لطالما تمنيتُ منذ أن بدأنا الدراسة الثانوية معاً ،أن ندرُس الجامعةمعاً. لما علمْتُ أن درجاتها كانت ضعيفة، تمنيْتُ أن تحاول رندا مرة أخرى وأن تدخل الجامعة العام التالي. كنت أحلم بها أن ترافقني في الجامعة وترى أنور، وأن تتعلم ما هي "الجبهة". قالت وصوتها يفيض بالإصرار: "يمكنني أن أعود بعد أن احصل على المستويات المتقدمه."فجأة بدا لي شعرها اللامع ولمعان شفتها أقل جمالاً مما كانت عليه.

التفتَتْ نحو أمير وسألتْه بصوت حاد قليلا: "ما هو رأيك يا أمير."

هز كتفه بلا مبالاة وقال: "لم لا؟"

استرْخت في مقعدها وقالت: "بالضبط، لم لا؟"

هكذا إذاً . لم يكن ليهتم. تألمْت من أجلها وزاد من صدمتي أنها ستغادرنا بعيداً. أستَطلُ ب مني أن أذهب معها للحمام الآن؟ أستنفجر باكية؟ بدا تعبيرمُشوش يظهر على وجهها.

قالت: "هيا يا عمر...دعنا نرقص."

رانَ صمت بيننا ولابد أن أخي بدأ خلاله في تسجيل واستيعاب وتحليل ما قالته رندا للتو. تردد قليلا وهو يختار بين إطفاء سيجارته،أو أخْذِها معه لحلبة الرقص. أطرْقْتُ أنظر للأرض. مشيا معاً نحو حلبة الرقص، وهناك حجبا عني رؤية سنداري وصديقها. لم أنظر إليهما يرقصان، وبقيتُ استَمِع مجبرة علىكلماتِ غناءِ فرقة "بي جيز" الغث. لم يفتح أميرفمه فأكملْتُ شُوب البيبسي وأنا أقْضِ م كل قطع الثلج في الكوب. كنت في انتظار انتهاء الأغنيةِ البطيئةِ ، وفي انتظار عودة عمر ورندا.

بعد الحفل الراقص ذهبتُ مع رندا إلى منزلها، حيث تركني عمر معها وذهب لحفل آخر...حفل خاص هذه المرة – حفل يبدو أن فيه أشياءً غير مهذبةٍ لا يُريد أخي أن يُطلعني عليها. لقد بلَ ت أعداد مثل تلك الحفلات المُريبة تزداد، كما تتزايد أعداد أصدقائهالجُدُد وأماكنه التي لستُ على علمٍ بها.

في بيت رندا كان أبواها يتناولان طعام العشاء، ولتحاشي لقائهما دخلنا من باب المطبخ، متجاوزين الخدم المفزوعين من دخولنا هكذا، والأرضية اللزجة ببقايا زيت القلي وبقايا قشر الخضروات. كانت غرفة رندا في الطابق العلوي مرتبةومكيفُ الهواء فيهاينفُثُ بصوت ناعم نسائماً باردةًلطيفة. لبِسَتْ فوق التي شيرت الذي كانت ترتديهقميصاً طويل الأكمام حتى كما قالت: "نذهب ونتناول بعض الطعام." جَذبْتُ بلوزتي خارج بنطالي الضيق، وتركتُها هكذارغم أنها كانت "مكرمَشة" لتُغطي أردافي، ولأبدو أكثرَ احتراماً قليلا.

كان والدا رندا مجنونان قليلاوفقاً بوالِيَْ كانا قد درسا بإنجلترا، حيث وُلِدَت رندا، وعادا منها بعادات وطباع إنجليزية غريبة الأطوار.خِلافاً لكثيرٍ من السودانيين فقد اقتنيا كلباً صغيرا، وكانا يستمتعان برياضةِ المشي، ودعوة الأصدقاء لتناول العشاءبكروت دعوة مع الاحتفاظ بجراءِهم. كانت

والدة رندا هي واحدة من أوائل البروفسيرات الجامعيات بالسودان. لذا كان عدم مقدرة رندا في دخول الجامعة مصدرَ خيبة أمل مريرةللعائلة. الآن سَيبعثون بها لإنجلترا للدراسة -تلك خطوةٌ جريئة أخرى، إذ لم تكن هنالك فتيات سودانيات كُثر يذهبن بمفردهن للدراسة بالخارج.

أكمل والداها عشائهما، ومشيا للحديقة، وبذا تفادينا تحيتهما والحديث معهما. قبل أن يبدأ الخادم في نظافة وترتيب غرفة الطعام، أخذنا طبقين كبيرين من الطعام وعدنا بهما لغرفة رندا. تنبهْتُ إلى أن رندا حزينةً ومكسورةُ القلب على عدم اهتمام أمير بها فلم تَمَس كثيراً من طعامها. ثُبْتُ ماعلى طبقي وعلى ما لم تَمَسه من طبقها كذلك.

سألْتُها ضاحكة: "هل رأيت سندراي وصديقُها الجندي البحري؟ يبدو أن الأمور أخذَت منحى جاداً."

" هل أخبْرتُك أنني شاهدْتُ سيارتَها تقف أمام مبنى البحرية؟"

"لا أصدق! هل تمزحين؟"

"لستُ أمزح... وكان ذلك وقت القيلولة!"

صرخْتُوضحِكَتْ رندا. لقد عادت الى طبيعتها مرةً أخرى، ومضينا نضْحك معاً ونثرثر ونتبادَل القصص والاقاويل حول كل من كانوا في حفل الديسكو في النادي (عدا أمير بالطبع)- ما كانوا يلبسون، ومع من كانوا يَرقُصون، وما درجة تلاصُقهم في الرقص. انتظرْتُ أن تتحدث رندا عن أمير لكنها لم تفعل. أَخذْتُ الصحنين الفارغين إلى المطبخ وقالت بأنها ستُحضِرُ طبق الحلوى.

وبينما أنا وحيدة في غرفتها،فعلْتُما حاوَلَت أمي (دون نجاح) انْجازَه طوال سنينٍ كثيرة...ألا أتَجسسَ ولا أتَحسسَ. فتحْتُ خزانات رندا ونقبْتُ في محتوياتِ أدْراجِها. وجدْتُ صورةً لِكليْنا في المدرسة ونحن نرتدي زياً موحدا- كلونمِئْزر البحريه وحزامٍ أبيض. تشابَكَت أيدينا ونحن نبتسم للكاميرا. كانت رُؤيَة رندا يومياً في تلك الأيام تُفرحُني... يوميا... وأن أجلس بجانبها في الفصل، وأن أهمس لها أثناء الدروس مما يُزعج الأساتذة، وأن نتبادل السندوتشات ونشرب من نفس زجاجة الدبل كولا.

قلبْتُ سريعاً مجلة البنات البريطانية "جاكي" ووجدتُها طفوليةً ساذجة. لماذا تُصر رندا على الاحتفاظ بأعداد كبيرةمنها أُرسِلَتْ خصيصاً لها من لندن؟ تَصفحْتُ سريعاً عددا من مجلة "تايم" الأميركية. خُميْني، الحرب العراقية الإيرانية، وبنات سِوْن في مظاهرةٍ وهن يرتدين الشادور الأسود، طالباتُ جامعة... وامرأة تحمل بندقية. كانت تُغطي جسدها بالكامل...مُخْفِية من رأسها حتى أخمص قدميها.

عادَتْ رندا للغرفة تحمل وعاء به كريم كراميلا وتفاح وموز.

وضعْتُ المجلة على الأرض ومدَدْتُ يدي لتناول نصيبي.

أشارَت إلى صورة المرأة المغطاة وقالت وهي تناولُ ني ملقتي: "متخلفةٌ تماما."

ينبغي أن نتقدم للأمام ولا نرجع للعصور الوسطى. كيف لامرأة أن تعمل وهي ترتدي مثل هذه الملابس؟ كيف يتسنى لها العمل بهذه الملابس في مختبر، أو تلعب التنس أو أي شيء آخر؟"

"لا أدري". بلعْتُ ملاعق قليلة من الكريم كراميل وحدقْتُ في المجلةوأنا أقرأ بضع جُملٍ من المقال.

قالت رندا: "هؤلاء مجانين. لم يأمر الإسلام بمثل هذا."

"ماذا نعرف نحن؟ نحن لا نصلي حتى". أحياناً كنت أشعر بذنب كبير.

ردت رندا:" أحياناً أصلي."

"حقاً ! متى؟"

قالت ضاحكة: "أيام الامتحان...لقد ساعدتْني في كثيرٍ من المرات."

"عندما أصوم رمضان كنت أصلي. أخبرتني طالبة في المدرسة ذات مرة أن الصوم لا يُقبَل إن لم أُصلي."

رفعَتْ رندا حاجبيها من الدهشة. "أنت تقضين نصف شهر رمضان مدعية أنعادتكِ الشهرية لم تنقطع، ولايُمكنُكِ الصيام!"

"ليس نصف الشهر. أغُش بعض المرات، ولكن ليس نصف الشهر."

"كنا العام الماضي في لندن ولمنصُم البتة."

"هل هذا صحيح؟ لا يمكنُني حتى تخيل رمضان في لندن، ولندن في رمضان."

"كيف يُمكن لأحدٍ من الناس أن يصوم في لندن؟ سيُفسدُ ذلك كل متعة."

"نعم سيُفسِدِ كل متعة." نظرْتُ إلى صورةِ الفتاة المنقبة في المجلة ومضيْتُ أفكر في زميلاتي من المحجبات في الجامعة، والأُخريات اللواتي يرتدين الثوب. وزينا القومي يُغطي الشعر والأيدي.

سألْتُها: "هلإرتديتِالثوبَ من قبل؟"

أجابَت وهي تضغط بأصبعها على صورة غلاف مجلة التايم:" نعم. ولكن الثوب يختلف عن هذا. ليس متزمت كهذا. بالثوب تظهر مقدمة شعرك وذراعيك."

"يعتمد الأمر على كيفية لبسكِ للثوب، وما تلبسينه تحته. بالطريقة التي تلبس بها بعض الطالبات الثوب فهو فعلاً يغطيهن."

"ها!" رَدتْ بسخريةٍ وحُرقة. تَمِتُ أني أتيْتُ على ذِكْر الجامعة، فتلك الكلمة تَمس وتراً حساساً عندها. تركتُالمجلة وأكملْتُ الكريم كراميل.

قالت وهي متجهمة: "لم أذاكر دُروسي بما فيه الكفاية. لم آخذ الامتحانات بالجدية اللازمة."

"هذا ليس عدلاً بالمرة أنتِ أذكى مني. السبب الوحيد الذي جعلني أدخل لجامعة الخرطوم هو أنه كان بمقدوري أن أجلس لساعاتٍ طويلة على مؤخرتي السمينة لأحفظ دروسي."

قالت بصوت هادئ خفيض: "ربما كان علي أن أفرح. أنا سعيدة – ربما علي ذلك- لأنني سأسافر إلى لندن... ربما ليس إلى لندن ولكن إلى منطقة خارجها."

انتظرتُها للتحدثِ عن أمير، ولتشتكي من تجاهلِهِ لها طوال هذا المساء. فعلّقتْ ذلك أخيراً، فأخبرتُها بالشائعاتِ عنه وصديقتِه الجديدة في "النادي العربي."

تجاوزَت الساعة الثالثة صباحاً عندما وصل عمر ليُحضرني إلىالبيت. كنت قد بدأتُ أقلق عليه، وهاتفْتُ أكثرَ من مكان لمحاولة الوصول إليه. كان جميع من في منزل رندا قد ناموا، بينما بقيتُ أنا ورندا نشاهد فيديو المسلسل الأميركي "دالاس". من حسن الحظ أن ماما وبابا كانا في القاهرة، وإلا لثارَتْ مشكلة.واخيراً عندما وصل ليأخذُني كان يبدو متعباً، وتفوح منه رائحة البيرة وشيءٌ آخر...شيءٌ حُلو.

قال لي: "تولي قيادة السيارة." لم يُعجبني ذلك. قُدت السيارة، ولم يَضع شريط "بوب مارلي" كما كانيفعل دائما. جلس بقُربي هادئاً وساكناً، لكنه لم يَنَم. شَمَمتُ منه رائحةً لم أشأ أن أُصدقها... حشيش؟ ماريجوانا؟

مع وصولنا للدار تَناهى لمسامعنا صوت آذان الفجر. استيقظ الحارس والذي كان نائماً على الأرض ليفتح لنا الباب. أيقظَ صوت الآذان وكلماتُه وطريقة إلقائهشيئاً ما بداخلي. سرَت كلماته عبْر الرائحة التي ملأَت السيارة، وعبر المتعة العابرة التيحصلْتُ عليها في ديسكو ذلك المساء، ونَفَثْتُ إلى مكان لم أكُن أدرك أنه موجود. مكان أجوف. ظلامٌ دامسٌ يُصدُني ويقضي علي. ركنْتُ السيارة،وأغلَق الحارس بوابة الدار خلفنا. لم يَخلُد بعدَ ذلك للنوم.

"عمر، لقد وصلنا للبيت...عمر." انحنيْت وفتحْتُ له باب السيارة. فتَح عيْنيْهِ ونظرَ إليَ بوجهٍ يخلو من التعبير. خَرجْنا من السيارة وأغلقْتُ الباب. لم تَهُبفي الجو نسمةٌ باردةٌ واحدة. كان الليل ساكناً والهواء خامداً، بمقدوري أن أسمع الآذان. استمر الآذان واستمر. ومن بعيد سمعْتُ صوتَ آذانٍ آخر وصدى صوته يتردد في الآفاق، يُحركُ الراكدَ في دواخلي، ويوكزُ الخَوَرَ المخفي، تماماًمثلما ألمسُ ساقيَ عندما يُصابان بالخَدَر.

تحرَكَ الخَدم، وفي الجزء الخلفي لدار سمعْتُ صوتَ مياهٍتدفقة، وشخصٍ يبصُق، وصوتُ عطسةٍ، وجرجرةَ أرجلٍ ترتدي شبشباً على الأرضيةِ الأسمنتية. لاحَ في المكان ضوءُ لمبةٍ كُهربائية. كانوا يستعدون لصلاةِالفجر. لقد هجروا عزيزَ النوم من أجلِ إقامة الصلاة، بينما كنت أنا مستيقظة ولم أفكر في الصلاة.

الفصل الرابع

لم يَعُد أصدقائي يستغربون من انتظار أنورلي بعد المحاضرات. كنا كثيرا ما نذهب معاً لمقصف قسم العلوم لأن عدداً قليلاً فقط من الناس يتعرفون علينا في ذلك المِقصف البعيد، رغم أن وجه أنور مألوف للكثيرين نسبةً لنشاطه السياسي. لم يكن يتحدث معي في السياسة، لكنه كان يسألني أحيانا أسئلة غريبة.

"كم من الخدم يعملون في منزلكم؟"

بدأْتُ أعُد أشياء لم تخطر لي على بال من قبل. "الطباخ، الخادمة الإثيوبية، صبي المنزل، الحارس وموسى السائق. هؤلاء فقط. لا... ليس صحيحا. هنالك أيضا الجناينى، ولكنه لا يأتي يومياً ."

"ستة."

"نعم... ستة."

"وأنتم أربعة.؟"

ردَدْتُ عليه مدافعة "ولكن لدينا ضيوف كُثر." كان الحرم الجامعي شبه فارغ. كانتالساعةُ ساعةَ الغداء، وهو وقتٌللقيلولة يخلُ نُفيه كثير من الناس لمنازلهم اتقاءَ حرارة الشمس. لكن كان الفصل شتاء وحرارة الشمس مُحتملة. بعد الخامسة عصراً تبدأُ حرارة الشمس في الانخفاض، ويمتليء الحرم الجامعي مجدداً بالطلاب ليشْهدوا المحاضرات المسائية.

"ألم يدُر بخلدك أنه من الخطأ الشنيع أن توجد مثل هذه المفارقات الكبيرة بين الناس؟ توجد مجاعة في غرب البلاد. تُعد بلادنا واحدة من أفقر بلاد العالم قاطبة."

هَلْهَلْتُ في مقعدي وتَمْتَمْتُ بالقول: "ليس هنالك شيء أستطيع فعله حيال ذلك."

رقَقَمن حِدة صوته ونظراته لي قليلا وقال بِوُد: "ولكن ذلك ليس بصحيح. إن أمر تغيير النظام مُتوقف علينا. يَتوقف الأمر دوماً على الطلاب والعمال ليُغيروا الأوضاع."

أخبرْتُه بما قرأتُه في مجلة "تايم" عن الخُمَيْني والثورة الإيرانية. بدا مستمتعاً عندما علم أني أقرأ مجلة "تايم". ربما لأن لغة المجلة كانت الإنجليزية، ولغتي الإنجليزية كانت جيدة جداً لأني تعلمتُ في مدارس خاصة. أو ربما لأن مجلة "تايم" أمريكية.

كنت تَواقة لأعرف رأيَه في الثورة. تحدث عن الثورة قليلاً، مُبديا موافقته على إزاحة الشاه، ولكنه كان مُعارضاً للحكومة الإسلامية. كررَ نفس الكلمات التي رَدَدَتْها رندا- "يجب أن نتقدم ولا نرجع للوراء"- وكان مُحقراً من الشادور الأسود.

ابتسمْتُ وأنا أقول له: "أنت تقدُمي جداً إلاَّ عندما يتعلق الأمر بالنساء وحقوقهن!". كنتُ سعيدةً بمجْرَى الحديث في ذلك الإتجاه، والتي اتاحتْ لي فرصة مغازلته بكلمات ثناء، ولأُثبت لنفسي مرة بعد أخرى أنه، وبالرغم من عدم موافقته ورضائه عن خلْفيتَي، فإنه مُعجبٌ بي.

كان أنور من كُتاب أحد جرائد الطلاب..جريدة الجبهة. كانت الصُحُف تُكتب باليد وتُدبّس على لوح خشبي مُعلق في المقصف. يتَهافت الطلاب عليها ويزدحمون واقفين على أطراف أصابعهم عند لحظات تعليقها الأولى لقراءة صفحاتها العليا، ويجلسون على كعوبهم لقراءةِ صفحاتها السفلى. أذهبُ بعد يومٍ أو يومين من تعليق الجريدة حينَ يقل الزحام، لأقرأ ما فيها. كان مُعظم ما هو مكتوب فيها يثير مَللَي، بيْأني كنت أُداومُ على قراءة ما يكتبه أنور، وأبذلُ جَهدي لأفهم ما يُكتب. كثيراً ما يشغلني جمالُ الخط وروعة الألوان عن تدبر معاني ما هو مكتوب من كلمات. كانت العناوين مكتوبة بحروف كبيرة حمراء وسوداء، وذات أبعادٍ ثلاثية. كانت هنالك رسومات أيضا، لورقة شجر خضراء أو حمامة طائرة عند نهاية كل مقال، وهناك أيضا رسومات كاريكتيرية وإسكتشات ونوادر ونكت ساخرة. كانت حريةُ التعبيرِ مكفولةٌ داخل جدران الحرم الجامعي، والتي كانت له قداسة وحُرمة، ولا يُسمحُ حتى للشرطة بالدخول إليه. وبالرغم من ذلك فإن الجميع يعلمُ أن هنالك للحكومة جواسيس وأعين في كل مكان. قال لي أنور مفتخراً بأن الشرطة السرية لها ملفٌ كامل عنه.

الطريقة التي ينطق بها اسمي. الطريقة التي يقول بها: "إن لك تأثيراً علي." أحياناً تجرحُني كلماتُه عني...قال ذات مرة إنني غبية، وأحياناً تجعلني كلماتُه أضحك.

أخبَرْتُ ماما عنه. قالت لي في بساطة: "لا تُخاطري بسمعتكِ، ولا تُضيعي زَمنك في صحبة شاب لن يغدو أبداً زوجاً مناسباً لك." كانت تُدرِك أنني لستُ مقتنعة بما تقول، وكانت كلماتها الناصحة لي تزدادُ حدة: "إن أباك لن يوافقَ أبداً على هذا الشاب، ولن يكون بمقدوركِ العيش أبداً معه بذاتِ المستوى الذي تعيشينه الآن... لا خدم ولا سفر. صدقيني ستَشعُرينَ بالسوءِ أمام أقربائك وأصدقائك. سيكون وضعكِ مُذلاً ومُهينا لك ولنا أيضا."

"أوكي،" وخَرَجَتْ مني بصوتٍ عال : "**أوكي.**"

خفَفَتْ من حدة لهجتها قليلا،مُحاولة أن تشرح لي موقفها: "لقد نشأتُكِ حتى تصبحين ذات مكانة في هذا المجتمع...حتى تعيشين في مستوى معين."

خرَجَتْ من الغرفة وأنا لأحَظ في عينيهاتحذيرٌ وإنذارٌ صادقٌ وحقيقي لي. كانت تخشى أن أعصي أمرها، أو أن أفعل شيء ما دون روِيةٍ وتدبر. بيْد أن إيقاع وتواتر ذهابي اليومي للجامعة، حيث ألقاهُ يوماً، ولا ألقاه في يومٍ آخر، قد كبَح تصرفاتي. لم أكن واثقة أن لي مكاناً في خُططه المستقبلية، إذ لم يكن قد صرح لي بشيء أو ألمحَ لآخر. أما بالنسبة لي، فقد واصلْتُ في الغرق في أحلام من صُنع الأغاني الغربية الخفيفة التي كنْت أداوم على سماعها، والأفلام الأمِيكية التي كنت أُحب مشاهدتها. لكني سرعان ما أُفيق من حُلمي واتذكر أن هذه هي ذات الأشياء التي يحتقرها أنور.

كان مستواه جيداً في اللغة الإنجليزية من حيث الذخيرة اللغوية والقواعد، بيد أن لهجته كانت – والحق يُقال- ضعيفة. عادة ما تكون ملابسه أنيقة وذات ألوان جميلة- بيْد أنها كانت قديمة الطراز، وكان يرتدي صنادل وليس أحذية وجوارب. لم يتعلم في مدارس خاصة، ولم يتلقَ أبدا دروسا خصوصية. كان طالبا ممتازا بذكائه واجتهاده فقط، وبقراءته الخاصة وارتياده للندوات والمناظرات. كان والده فنياً عالي التأهيل في السكة حديد، وله من الأعمام اثنين، احدهما مهندس معماري سُجِن ذات مرة بتهمةِ الانتماء للحزب الشيوعي السوداني. كان له من الأخوان والأخوات سبعة، كُبراهم كانت تعمل شرطية ومتزوجة ولديها طفل، وله أخ يدرس في موسكو، وآخر في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، يليه أنور، ثم أختان صغيرتان في المدرسة الابتدائية. كانت إحدى أخواته مريضة، لكنه لم يكن يرغب في الحديث عنها. أمه عمِلَت كممرضة مؤهلة، ولكنها توقفت عن العمل كانت له عمة، تزوجتْ وسافرتْ مع زوجها للسعودية. عاش غالب سنوات عمره في داخليات المدارس والجامعة، وقلما كان يذهب الى منزل والديه، بالرغم من أن ذلك البيت لم يكن بعيدا، فقد كان عبر الكبري في حي الصافية. كان يُدخن التبغ يوميا، ولا يشرب الخمر إلا بين الفينة والاخرى.كان يُدخن السجائر فقط ولاشيء آخر ولا يُصلي. لم يكن يصوم رمضان إذ لم يكن يرى له من سبب أو منطق في ذلك. لم يسافر إلى خارج السودان، ولكنه طاف في أرجاء البلاد المختلفة من بورتسودان، إلى الأبيض وجبال النوبة ، وزار جوبا في الجنوب. أنا لم أُغادر الخرطوم.

سألني: "لماذا تسافرين إلى أوروبا ولا ترغبين في زيارة مناطق بلادك المختلفة؟" أردف قائلا وهو يُشعل عود ثقاب ليُشعل سيجارته: "بلادنا جميلة". وعندما كنا نضمن أن لا أحدَ يستطيع أن يرانا في ليلِ الجامعة في المناطق قليلة الإضاءة ،كنا نتماسكُ باليدين، أو نجلس سويا متقاربين بحيث تتلامس أذرُعُنا.

وقف المُتحدث على صندوق ميرندا بلاستيكي مقلوب تحت ظل شجرة. كانت الشمس معتدلة الحرارة، وريح خفيفة تُلطف الجو، ولكني رغماً عن اعتدال الجو كنت أضع كراسةَ مذكراتي على رأسي، وأحدق في المتحدث بعينين نصف مغمضتين. كنت في وسط حشد من المستمعين، منهم طالبات يرتدين ثيابهن البيضاء، وأخريات مثلي يضعن كراريسهن فوق رؤوسهن. جلس بعض الطلاب فوق العشب الأخضر، بينما جلس الآخرون على الحاجز الفاصل بين الحديقة وممرات المشاة. من على البعد كنت ترى رشاشات السقي وهي تدور مُطلقة زخات ماء على العشب وشتلات الأزهار. كان هنالك مُكبر صوت جيد (ميكرفون)، مما يجعل الأمر مختلفا اليوم، إذ جذب أعدادا أكبر من المستمعين، ووصل صدى صوت أنور للمقصف ونفذ إلى داخل المكتبة.

تحدث بثبات في بداية الأمر... بنوع من البرود تقريبا، وتلَت ذلك خُطبة ألقاها بشَغَف وعاطفة مُحْكمه. حافظ على ثباته وهوئه، وهو واقف مُنتصب القامة ينتظر التحديات والاستفزازات التي تَصحب الأسئلة. كان ذلك هو الوقت الذي يُرز فيه أنور مَواهبه، ويُخرج أفضل ما عنده من إجابات ساخرة، وتحليلات ذكية، وحُجَج قوية، وردود قاطعة... يبتسم بعدها ويرفع حاجبيه وكأنه يقول: الآن أكملت مُرافعتي. كان أحيانا يُلقي بنكتة جيدة يسخر فيها من خصومه السياسيين، نكتة تجعل الجالسين فوق العشب يضحكون ضحكات مكتومة، وتجعل من هم في الخلف يبتسمون. كنتُ فخورة به ، وكانت مُتعة النظر والاستماع إليه بمثابة هدية عظيمةِ القيمة ... مثل الآيس كريم عندي عندما كنت صغيرة...مثل مثلجات الشوكولاتا التي يُردم فوقها الكريمة عند قمتها، والتي أتلذذ بها وأتمنى أن لا تَنْفذ أبدا. ولكنه آذاني بكلامه بعد ذلك، وكان يجب أن أتوقع ذلك منه. كان عليَ أن اطلِع على قدوم ذلك منه...هجومه الحتمي على البُرجوازية. كانت تلك هي كلمته المفضله. ومما زادَ الأمر سوء إنه صار الآن أكثر صراحة ووضوحا، فإستخدم اسم أبي واسم عائلتي...كل ما هو مألوف وقريب مني. تلك كانت ضربةً مباشرةً لي كلكمةٍ في البطن, في أعلى بطني.تمالكْتُ نفسي، وسوَتْ برودة غريبة في سائر جسدي، ولكن خدايَ كانايحترقان. صكَ أُذني هدير التصفيق والهتاف والضحك، ومنعَني الصخَب من أن اسمع بقية جملته. لم ينظر إليَ قط طوال خطبته. كنتُ غير مرئيه، ولكن ذلك كان اسمي في اتهاماته المباشرة لوالدي. كان ذلك اسمي هو السبب الذي أضْحكَ الجميع. نعم، أنا ارستقراطية، من جهة أمي، حيث لأسرتها تاريخ طويل في امتلاك أراضي زراعية شاسعة، وفنادق في العاصمة، وحسابات في المصارف العالمية، و دعم البريطانيين. كأن كل ذلك لم يكن كافياً، يقف أبي الآن مُتهما ممن يَخطب أمامي بأنه رجلٌ فاسد.

دفعْتُ بنفسي لأخرُج بصعوبةٍ من وسط زحام الحاضرين وأنا شبه صماء، ولا أعلم إن كان أحد ينظر إليَ وأنا أنسحب هكذا. أعلم أنه يجب علي ألا أبكي ، وأن أمشي لسيارتي موفورة الكرامة. جلسْتُ

فوقَ كرسي القيادة على الكرسي البلاستيكي اللزج، وأنزلْتُ فرملةَاليد، وبدأْتُ في لَي المفتاح لاشعال السيارة به وكنْتُ اهِم بالقيادة حين سمعْتُ خَبْطاً على زجاج نافذتي الزجاجي. عُمر. كان عُمر يبتسم وهو في مزاجٍ طيب. ليس ذلك بعُمر الذي يرتاد الحفلات سيئة السمعة، وتنطلقُ من فمه رائحة مشبوهة، لكنه عُمر الطالب النظيف المبتسم الذي يرتدي تي شيرت ناصع البياض وجينز أزرق. أنزلْتُ زُجاج النافذة لأتحدث معه.

"ما بكِ يا نانا؟"

كيف عرف؟ كنا ولمرة واحدة منذ فترة طويله ننام سوياً متقابلين في بطن ماما... نتقلب ونركل ونتلوى داخلها. كم كنت أتمنى أن أعود لذلك الزمان. طفَرَتْ الآن فقط دموع غبية من عيني.

"ما بكِ يا نانا؟"

"لا شيء."

"حسناً. دعيني أقود السيارة."

"ولكنك لاتود العودة الآن للبيت."

" حسناً. يُمكنني العودة مرة أخرى."

"هذا سخيف." مسحْتُ وجهي بظهر يدي وأنا أتنَشق.

"لا عليكِ. انتقلي للكرسي الآخر."

خرجْتُ من السيارة لأجلس في مقعدِ الراكب.أشعرُ بدُوار وتخبُط ولم أكن أود الحديث.

رأينا حادثةَ سير بين سيارتين ونحن في طريقنا للبيت. سمعنا صوت زُجاج يتهشم والسيارتان تتصادمان...كانت الأولى عربة أجرة والأخرى داتسون زرقاء. تجَمْهَر المارة حولهما وتَعطل سير الحركة. لتف عمر بالسيارة نحو شارع جانبي تفادياً لزحامِ السيارات الواقفة. كان في ذلك الشارع الجانبي خندق، وبيوتٌ أبوابُها من المعدن. على أحدِ الأبواب رأيْتُ تصاميمَ وأشكالاً متنوعة شملِت القلوب والألماس والأسباتي والآس. أَدْخلَ عُمر شريط "بوب مارلي" وطَفِق يُردد مع المغني أغنية "صباحٌ ضبابي".

الفصل الخامس

غطستُ في المسبح لتصدْمني برودة ماء يناير. طفوتُ لسطح الماء شعرتُ بضيقٍ في صدري وصعوبة في التنفس...همهَمْتُ بكلمةٍ واحدة: "مُتجمدة."

صرخَتْ رندا من تحت مِظلتها المُركبَة في منتصف طاولةٍ بقُرب المسبح: "أنت مجنونة." كانت تُغطي عينيْها بنظارة شمسية أنيقة، وتأكل سندوتشاً مقلياً من الجبن. كان خياري الوحيد هو مواصلة السباحة إلى أن أتدفأ. كان سطح الماء دافئاً لأن أشعة الشمس كانت مُصوبة عليه طوال النهار، بينما بقي عمق ماء المسبح بارداً، فلم أسبح عميقاً. وصلتُ لنهايةِ الجزء الضحل من المسبح واستدرتُ دافعة بقدميَ الحائط وعائمة بالصدر نحو الجزء العميق. كان هنالك بعض الأجانب يتشمسون وهم جلوس على كراسي المسبح، وأجسادهم ممسوحة بمنتجات "امبر سولاري"، يقرأون كتب "سيدني شيلدون". بقي المسبحُ لي وحدي إذ لم ينزل للسباحة منهم أحد.

سبحْتُ لأشواط ثلاثة قبل أن أتخلص من التيبُّسِ والشدِ الذي أحدثَه الماء البارد، وبدأتُ استمتع بالعوم رغم طعم الكلورين المُعتاد في فمي، وما أحدثَه في عينيَ من وخزٍ وحُرقة. كانت يداي وقدماي تشُقان الماءلأتقدم للأمام. بالأمس مررْتُ من أمام أنور دون أن أُحييه كان مع بعضٍ من أصحابه يثبتون جريدتهُم الحائطية. شعرْتُ بالرضاء عن نفسي من تجاهُلي له. كان ينتظرُني عند خروجي من محاضرة علم المحاسبة ابتسمَ في وجهي وكأن شيئا لم يكن كان يتوقعُ أن أمشيَ معه، ولكني تجاهلتُه ومشيتُ مع بعض الطالبات نحو المقصف. كنت وأنا أسبح في الماء أفكر في الأمر وغضبٌ مُمِلٌ يجتاحُني نحوَه.

خرجتُ من المسبح ولففتُ وِسطي بمنشفة وجلستُ بِقُرب رندا.

داهمتْني رندا بالقول:" لم يستطع حارس حوض السباحة أن يرفع عينيه عنكِ."

ردتُ ساخرة: "يا لظُرفِك !" واختلستُ نظرةً سريعةً للرجل. كان يرتدي قميص "بولو" أصفر اللون فوق زي السباحة. كان إريترياً.

أخرجْتُ مِشْطاًمن حقيبتي وبدأتُ أُمشط شعري المبلول. لم يكن شعري ناعماً أو طويلاً كشعر ماما.

"ألن تقومي بأخذ دُش وتغسلي شعركِ بالشامبو؟"

"لا." بعد ما أخبرتْني عن حارس حوض السباحة أحسستُ بالخجل الشديد من أن أذهب وأقف تحت الدُش، والذي كان قُرْب مكانه.

قهقهَتْ في غنجٍ وهي تقول: " سيتفحصكِ جيداً إذاً."

"بالضبط." أحسستُ بضيق لم أجد له تفسيرا. كانت ماما لا تعترض على أن أمارس السباحة شريطةَ أن لا أرتدي البكيني، لكني، ومنذ دخولي للجامعة، بدأتُ اشعر بعدم ارتياح حتى وأنا أرتدي زي سباحةٍ كامل...أسود ومُتحشم.

قالت رندا:"والدي حجزَ تَذكرتي اليوم."

"لا!"

"نعم. سأسافر السبت بعد القادم، وسيبدأ الفصل الدراسي يوم الاثنين."

بدأتُ في عَد الأيام المتبقية. عشرة أيامٍ فقط.

قلت لها: "سنُقيمُ لكِ حفلَ وداع."

"سيكون ذلك رائعاً."

بدأتُ في تخيل المكانِ الذي ستسافر إليه. سوف لا تسافر إلى لندن، بل إلى ويلز. قلت لها: " ابن خالتي سامر يدرس هناك أيضاً. في "كلية أتلانتيك". أخبرَنَي أن عليهم مُمارسة رياضة صعود الجبال ورياضاتٍ مشابهةٍ أخرى. هذا جزء من منهجهم. يُمكنهُ أن يُخبرك كل شيء عن هذه الكلية. إنه موجود الآن في الخرطوم في عطلةِ عيدِ الميلاد."

حركتُ مقعدي من تحت المظلة حتى تُجفف الشمس شعري... شعري المُشبع بالكلورين. كان عليَّ أن أُسرع بالذهاب إلى المنزل، وأغسل شعري وأُسرحه لأن عندي محاضرةً مسائية.

في ذلك المساء ارتديتُ تنورة "جينز". كانت واحدة من قطعي المفضلة، فهي ضيقة وطويلة ومفتوحة من الخلف. كان لها جيبان وسحَاب في المقدمة مثل ما للبنطال. لبستُ بلوزة حمراء قصيرة الأكمام مزينة بزهور زرقاء صغيرة في ياقتها. كانت تسريحة شعري رائعةً ذلك المساء...جعلتُ شعري متموجَ الخصل وليس مُجعدا. بذلتُ جهداً مضاعفاً ذلك المساء لأبدو في أروعِ صورةٍ وأبهى حُلة. كنت بهذا أحاول إغاظةَ أنور، وجعله يفهم بأنني لا أُبالي به وبما يقول.

لم يَكن في الجامعةِعند وصولي إليها عند الخامسة. وصلْتُ متأخرة عن موعد المحاضرة لأن عمَرَ كان قد أخذ السيارة ليذهب لمكانٍ ما مع سامر. كان انتظاري لعمر غلطة. هبَت نسمة لطيفة وأنا آخذ طريقاً مختصراً عبر العشب الأخضر في حديقة الكلية. كان صبي الكنتين "المطعم" ينشر "برشا" (حصيرة تصنع من جريد النخيل) فوق العشب الأخضر، وكان يبسِطها ويُحركها من مكان لآخر حتى يضمَن وضْعها بالزاويةِ الصحيحة.

كانت محاضرة الاقتصاد ذلك المساء جيدة جداً. كانت عن نظرية روستو، وقد فهمتُها ووجدتُها مقْنعةً ومنطقيةً جداً. سيُقلِعُ وطنُنايوماً ما كطائرة، بيْد أنه يتوجب علينا أن نظل نركض ونركض حتى نُسرِعَ من عمليةِ التنمية، ومن هنا نتحرك..نبدأُ بوتيرةٍ بطيئة، ثم تتزايد سرعة تلك التنمية، بعيدا عن تخلفنا ، ورويدا رويدا تزدادُ السرعة حتى نغادر وترتفع "طائرةُ التنمية" وتُقلِع وتطير عاليا وبعيدا. حينها نغدو دولة عظيمة... دولة "طبيعية" كغيرِنا من الدول الغربية الغنية. سنلحقُ بركب تلك الدول. كنت أفهم كل ذلككوضوحِ الشمسوأُسجلُه في كُراستي. كم تمنيْتُ لو كان عمر معي في تلك المحاضرة. كانتستُعجبُه نظرية روستو. ولكن بعد ذلك أصلحَ البروفيسور من وضع نظارته فوق أنفه وقال: "والآن نتحدث عن نقدِالماركسيين لتفسيرِ روستو للتخلفِ الاقتصادي وعدم التنمية." إذاً لم تكن تلك النظرية صحيحة على كل حال. لن نتمكن من الانطلاق. بدأ الطلاب من حوليفي التململُ وإحْداث همهَماتٍ وأصواتٍ بأرجُلِهم مشيرين إلى أن وقتَ الصلاة قد حان. تجاهلَ البروفيسور هذه الاحتجاجات ومضى في محاضرته قائلا: " يُعلمُنا التاريخ أنه ليس كل الدول المتقدمة قد نَمَتْ بِحسَب نظرية روستو..." ارتفعَتْ أصوات الهمهَمات، وتَجرأ طالبان شُجاعان وخرَجا من قاعةِ المحاضرات دون استئذان، وبدأَتْبعضُالطالبات في الضحك. أُضطرُ البروفيسور للتنازل وقال: "سنأخذُاستراحةً قصيرة لعشرِ دقائق."

تَزاحَم الجميعُ على الباب. قالَتْ إحْدى الطالبات اللواتي كن يجلسْنَ بقُربي وهي تبتسم: "لأنه شيوعي فهو لا يأبه ولا يهتمُ بالصلاة." كانت تلك هي الفتاة الريفية الجميلة ذات الغمازات. تَخطتْني مُتعجلة كي تغادر القاعة وهي تُنادي على صُويْحباتها. كانت ترتدي شِبْشِباً بِكعبٍ عالٍ يصْفَعُ كعبُها مع كل خطوة، وكانتترتدي اليوم ثوباً أزرقاً جعلَها تبدو أكثرَ حلاوة. كانمن المُعتادِ أن ترتدي الطالبات الثيابَ البيضاءَ في الصباح، والثياب الملونة في المساء. كُنت أحب مشاهدة التغيرات التي يُحدثها تغيير الثوب فيهن...من الأبيض في الصباح، إلى ما يلبسْنَبالمساءِ من الزهري والأزرق والمُطَرز بالزهور والأشكال من الثيابِالملونة بألوانٍ فاقعة صارخة.

كُنتُ واحدةً من آخرِ من غادرَ القاعة. وجدْتُ أنور يتحدثُ مع البروفيسور كأنه صديقٌ حميمٌ قديم. مرَرْتُ من أمامهما إلى الحديقة الخارجية، وجلسْتُ على سلالمِ إحدى الشُرفات أرْقُب الذين كانوا يُصلون. لم يكن كل الطلاب يُصلون. لم تكن الفتيات غير المحجبات أو اللواتي لا يرتدين الثوب السوداني – مثلي أنا- يُصلين. كان من الممكن أيضا أن تتعرف على طلابِ الجبهة لأنهم لم يكونوا من المُصلين. رَاصَ الطلاب الصُلون على ذلك "البرش" المنشورِ على العشبِ الأخضر، لكنه كان صغيرا لم يَسَع جميع المُصلين، فصلى من لم يجد له مكانا في "البرش" على العشبِ الأخضر. فَتَّش محاضرُنا في علمِ الرياضيات – وكان من الأخوان المسلمين- منديلهَ الأبيضَ على العشبِ الأخضر في موضعِ سُجودهِ ووقف كتفاً بكتفٍ بين البستاني. كان من أمَ المُصلين طالبٌ يتلو آياتِ القرآن بأسلوبٍ سهلٍ صافٍ وشديد الخشوع. حدقْتُ في ثيابِ البنات المُصليك جميعةً ولاحظْتُ تنَوُع الألوان فيها، وسَدَمات الهواء تُحركُها أحيانا. عندما كُن يرْكَعْن تتدلى أقمشةُ البوليستر على العُشبِ الأخضر.

فجأةً جاءَ صوتٌ من الخلف. "لماذا تتجاهليني؟" كان ذلك صوت أنور. أحسسْتُ أنه كان يُقاطعُني...يُقاطعُني في ماذا؟ لا أدري. لم أُجِبْهُ.نهضْتُ واتجهْتُ صوْبَ قاعة المحاضرات. لم أعُد أرى المُصلين من الطلاب، واحسسْتُ بطعنةٍ من الحسدِ تجاههُم. كان ذلك مفاجئاً وغيرَ عقلي ولا منطقي. ماذا عندهم، وليس عندي، لأحسِدَهم عليه؟

تبِعَني أنور. كنا وحيدين أمامَ مدخل قاعة المحاضرات. جذَب ذراعي فوْقَ المرْفق وقال في حدة: "لا تعْبَثي بي."

حاولْتُ سحْبَ ذِراعي من قبْضَتِه ولكنه ظل مُمْسِكاً بها وقلْت: "أنا الذي يَحِق له أن يَغضب."

"أنتِ غضبانة بسببِ ما فعْتُه ذلكَ اليوم في الندوة."

"نعم. بالضبْط أنا غضبانة بِسَبَبِ ما فعْتَه ذلكَ اليوم في الندوة."

تركَ ذِراعي وقال: "هذا ليس لهُ دخلٌ بكِ البَتة..."

قاطَعْتُه: "لكنه اسمِي. إنه أبي."

"إنكِ تأخذينَ الأمورَ بصورةٍ شخصية. وَسعي من عقلكِ."

"لا أريدُ أن أوَسعَ عقلي."

"هل تعلمينَ ماذا يقولُ عنهُ الناس؟"

"لا أريدُ أن أعرف."

"يُسمونه مستر تِنْ بير سِنْت (عشرة في المائة). هل تعلمين لماذا؟"

"توقف عن هذا."

"لا تستطيعينَ دفنَ رأسِكِ في الرمال. يجبُ عليكِ معرفةُ ما يفعله والدُك. هو يستغلُ وجوده في الحكومة. إنه يأخذ عُمولاتٍ على كل صفقةٍ تبرمُها الحكومة مع شركة أجنبية."

نطَقَ أنور كلمةَ عُمولات بالإنجليزية. "كوميشَنْز عُمولات". بَدَت لأذُني تلكَ الكلمة رسْميةً ومُحايدةَ ولا تُضمرُ أيَ لومٍ أو اتهام. لذا أجبتُهُ في تَهكُم: "وماذا في ذلك !"

خفَضَ من صوتِه، بيْدَ أنه كان أكثرَ حِدة: "هو يختَلِسُ الأموال. هذه الحياة التي تَنْعَمين بها- سيارتُكِ الجديدة، بيتُكُم الجديد. إن عائلتَكُم تزدادُ غنىً مع مرورِ كل يوم. ألا ترين؟ هذا فساد."

كان غضبي كستارةٍ ثقيلة تحولُ بيني وبينَه. "كيف تجرُؤ على التلفُظ بهذه الأكاذيب عن أبي! أبي هو أنا، وعائلَتي هي أنا."

"حاولي أن تفهمي هذا الأمر. إن مشاعري نحوكِ، وآرائي السياسية أمرانِ مختلفانِ جدا...لا جامعَ بينهُما. يكفي أن علاقتي معكِ تجعلُني أُضحْوكةً وسَط زُمَلائي."

"إذاً دعْني وشأْني فقط دعْني وشأْني، ولن يضحكَ عليكَ أحد."

زَفَرَ بنفاذِ صبرٍ، واستدارَ وذَهَب بعيداً دخلْتُ إلى قاعةِ المحاضرة، ولم أجدْها فارغة، بل وجدتُ فتاةً ترتدي الحجابَ جالسةً وهي تُقلِمُ أظفارَها. بَدَتْ لي خاليةً من الهمِ وراضيةً عن نفسِها وهي تُهذب من أظفارِها في القاعة. ربما تكون قد سَمِعَتْ كلَما دارَ بيني وبينَ أنور من حديث. ماذا كانت تفعل وحيدةً في القاعة؟ ولمَ لمْ تذهب للصلاةِ مع البقية؟ ربما تكونُ في دورتها الشهرية. جلسْتُ في مقعدي، ولأثْبِتَ لِنفْسي أنني لستُ منْزعِجَة لِما حدثَ للتو، أخرجتُ ورقةً وقلماً وبدأتُ في كتابةِ أسماءِ من أرغَب في دعوتِهِم لحفلِ وداعِ رندا.

الفصل السادس

بيتزا وبيبسي وشيبس (رقائقبطاطس ٍ مُحَمر َة) وكاتْشَب (صلصة طماطم). كعك وطعمية. سمبوسة واكلير بالشوكلاتا من محل الـ"جي بي". سندوتْشات تونا وبيض وسُجُق وجبنة بيضاء مهروسة مع الطماطم وجبنة بيضاء مع زيتون. آيس كريم فانيلا في كؤوس ورَ َقية. وزعتُها في الظلام وانتهيْتُ برمي معالق بلاستكية في آنية الزهور. كانت الشرفة في لون رمادي غامق، وظِلالٌ بنفسجية على السيارات. كُلنا كنا في غايةِ الجمال تحتَ ضوءِ القمر.

"آسفيا صدِحاب، مُوَ َلدُ الكهرباء لا يعمل ..."

"ليس بإمكاني تشغيلَ هذه الآلة اللعينة."

"لماذا يقطعون عنا التيار الكُهربائي فيمُنتصفالشتاء؟ ما هي مشكلةُ هؤلاءِ الناس؟"

"انتبه! والدُهُم هو الحكومة."

"أليس لديكُم بطارياتٍ لمُسجلِ الشرائط."

"بطاريات". عُذَ ر... لاعذِر لنا بطاريات. قُم."

"سأذهب لأشتري بعضها."

"لا...لا."

"ستُسافر لنيروبي لِحُضورِ العُرس"

"خمسة دقائق داخل السيارة..."

"لديكَ أروعُ أسنانٍ بيضاءَ رأيتُها...هل سبقَ أن قال لكَ أحدٌ ذلك؟ أنني استطيع رؤيتهما في الظلام!"

"إنك خُرِج الرجل."

"هذا هو حفْل وداعي. **هذا**؟"

"رندا!"

"إنني سعيدةلأنني سأفارِقكم...هل هذا أفضَل ما يُمكِنُكُم عَمَلُه."

"انظر إلى هذه البنت!"

"بعد يومِ الغد لن تُقطع الكُهرباء. الحضارة."

"خُذْ لكَ ساندويتش! هذا يبدو أنه بيْض...لا استطيعُ التمييز... شمَّه... هذا بالتأكيد سُجُق..."

"قد يرجْعِ ُالتيارْ الكُهربائي؟"

"ما المشكلة في موَلِّد الكُهرباء عندكم على كل حال؟ لماذا لم تَستَطِع أن تُشَغله؟"

"دَعْنا نَذْهَب..."

"لا أحد سيذْهَب لأي مكان. لا يتجرأ أحدٌ منكم على التحرك. ***سامر***.. ستُفْسِد الحفل."

" لو كانَ لديْنا موسيقى..."

"ماذا يفعل؟ لا... لا يُمكنكَ الذهاب. من فَضْلِكم لا تَذهبوا."

"سامر، لا يُمْكِنُك أن تَذْهَب الآن."

سطَع ضوءُ السيارةِ على سامر بتسريحةِ شعرِه "الأفرو" وشاربَه الجديد. جلَسَ في المِقعد بجانبِ السائق، وكانت رجلُه اليُسرى ما زالت خارج السيارة، وبابُ السيارةِ مفتوحاً. جلَس ينْظُر إلى راديو ومسجل السيارة ويعبثُ بمقابِضِها، وفجأةً دَوَى صوتُ هديرِ المُسجل بأغنية هيت وييفس "بوقي نايت".

بدأَ يرقصُ أمامنَا. ضحِكَتْ رندا عليهِ عالياً.

صرَخَتُ بصوتٍ عالي فوقَ صوْتِ الموسيقى "سامر...أنت عبقري."

"أدِر مُحرك السيارة يا رجُل. دِرْ مُحرك السيارة وإلا ستَخمد البطاريةُ تماماً."

أَحسستُ بحُزن وألَم عند مغادرتهم. جلَستُ في الشرفة بينما كان الخدم يُنَظفون المكان، والذي كان لا يَزال مُظلما لأن الكُهرباء لم تكن قد عادَت بعد، ولكن كانت عيناي قدْ تَعوَدَتا على الظلام، وكان بإمكاني أن أرى المَنازلَ المُجاورة والأرجوحة في الحديقة. لقد فَشِلَ الحفلُ فشلاً ذريعاً. ذَهبَ عمُر وثلةٌ من الآخرين إلى أَمَكِنة أُخرى، وعادَتْ رندا لِمنزلها لتُرَتِب أغراض السفر. وَدَعَتني وقالَت لي إن الحفلَ كان رائعاً. لم تَكُن تَعني ذلكَ بالقَطْع. أعلَمُ عَينَ اليَقين أنها لم تكُن تَعني ما قالت. أفسَد انقِطاع التيار الكُهربائي كُل شيء. كُنا في دقيقةٍ في داخلِ الدار نرقُص في طرَبٍ على الموسيقى الصاخبة والجوُ عامِر بالفَرَحِ والحُبور، وفي الدقيقةِ التالية كُنا في الحديقةِ في ظلامٍ أخرَسٍ دامس تَحتَ سماءٍ مُخيفة. لم تعُد

الأضواء مرةً أُخرى، وكان مولد الكهرباء عديم الفائدة. سيغتابوننا ويقولونَ بأننا أغنياء فاحشي الثراء، ولكننا بُخلاء لا نمتلك مولداً للكهرباء يعمل جيدا. أعلمُ بأنهم سيقولونَ ذلكَ بالتأكيد لأنني كُنتُ سأقولُ ذاتَ القولِ إنْ كُنتُ مكانَهُم.

فكرتُ في أنور، ومدى بُعْدِهِ من الحفلِ ومن صحابي. لم يكن يعرف ابن عمي سامر ولا رندا. الآن عندما أراهُ في الجامعة يقول لي مرحبا، وأرد عليه بمرحبا، ولا أزيد. هذا كلُ شيء. أحياناً ينظرُ إليَ وكأنه يُريد أن يقول شيئا ولكنه لا يفعل. يبدو عليه الانشغال هذه الأيام بكثيرٍ من النشاطاتِ في "الجبهة". لازلتُ أُفكرُ في الأمورِ التي حدثني عنها، وأحاولُ فهمَها. لماذا شعرتُ بالرعب عندما قال لي: "سوفَ لن يستمرَ الوضع في البلادِ على هذا الحال،" أو عندما قال: "إن هذا النظام سيسقط لا محالة". لقد قالَ لي بأن أُختَهُ الأصغرَ كفيفةٌ وإنهم كانوا سيُسافرون بها لألمانيا لإجراءِ عمليةٍ جراحية إنْ كانوا يملكونَ المالَ الكافي. كُنا نُسافرُ لأوروبا كلَ عام، ونقضي الصيفَ في شقتِنا في لندن أو في فنادقَ في باريس وروما لنتسوقَ من محلاتها. لو قضينا صيفاً واحداً في بيتنا بالخُرطوم، سيكونُ بمقدورِ أنور أن يأخذَ المالَ ويُجري لأُخته العملية. عندما كُنتُ صغيرةً قبلَ دُخولي للمدرسةِ الثانوية، كُنت أقعُ في مشاكلَ جديةٍ معَ ماما وبابا حولَ أشياءٍ كهذه. لقد أعطيتُ كُل عيديَتي لبِنتٍ في صفي. أعطيتُ ذاتَ مرةٍ حلَقَ أُذنَايَ الذهَبي لخادمةٍ إثيوبية. جرى طردُ الخادمةِ على الفور، بينما دخلتْ زميلتي التلميذة في مُشكلةٍ معَ مُديرةِ المدرسة. تقولُ ماما دوماً إن هُنالِكَ قواعد للعمل الخيري. لا تُعْطي الصدقة بحسَبِ الأهواءِ والنزوات. ستُحتَقرين وسيَظُن بكِ الظُنون وتُعَانينَ عَيبه.

تعلمتُ هذه القواعد. لا تُعطي إلا الملابسَ التي لبستِها، إعطِ بعدل، إعطِ بحساب، إعطِ فقط ما هو مُتَوقع. يُمكن أن تُسيءَ إلى الناس إن أعطيتَهُم أكثرَ مما يجب. يُمكن أن تُربكهم. يُمكن أن تُحرِجَ الكثيرين إن وهبتَهم هدايا باهظةَ الثمن، فيُضطرونَ إلى مُبادلتِكَ الهدايا بِمثلها. لا تُعطِ لأحدٍ شيئاً وتنسى زميلهُ أو شقيقتَهُ. فكِر. فكر جيداً قبل أنْ تُعطي شيئاً. هل الهدية متوقعةٌ منِكَ أم لا؟

ظللتُ مُستيقِظةً حتى أتى عُمر. نزلَ من سيارةِ أحدِ اصدقائهِ أمامَ بَوابةِ الدار، ومضى يمشي بِبُطء مُنقاداً متعثراً عبرَ درجِ الشُرفة، وكادَ يَسقُطُ في إحداها. لم يرنِ حتى خاطبتُه. كانت هُنالِكَ في الشُرفةِ أريكة بُنيَت على الحائِط. ألقى بِجَسدِه عليها وهو يُحلقُ في السماءِ ويَديهِ تتدليانِ إلى الأرض. شممتُ منهُ ذاتَ الرائحة الدُخانية الحلوة، والتي استطيع تمْييزها عن رائحةِ البيرة.

"أنتَ في مشكلةٍ كبيره." لم يُعِرْني أدنى إلتِفاتَة. "وجدتُ ظرفاً مليئاً بالبودرةِ في درجك."

أجابَ وقد بدا هادئاً ولكن أكثرَ تيقظاً "هل أخذتِها؟"

"لا ، ولكني سأُخبرُ بابا عنها."

قال وهو يتكلمُ بِبُطءٍشديد: "هيَ لا شيء يا نجوى. هي مُجرد بَنْقو. لا تُسبِّب الإدمان-أقْوى قليلاً من السجائِر – هذا كلُ ما في الأمر."

"أتظنُن أنَ بابا سَيَسعْد عندما يَعْلَمُ أن ابنهُ يُدَخنُ الحَشيش؟"

"وهل سيَسعَدُ إنْ علِمَ أنَ ابنَتَهُ تُصاحِبُ شيوعياً ؟"

"لقد انتهى كُل شيء بيني وبينَ أنور."

ردَ وهو يُحَوِلُ جَسَدَهُ للناحيةِ الأُخْرى ويَنْظُرُ إليّ في الظلام: "كُل ما في الأمر إنكما تشاجَرْتُما. ستَتَصالحان. وعندما تفْعلان، هل تعلمين ماذا سيفعل بابا بِه؟ سَيُرسِلُ لهُ مجموعةً من البلطجيةِ لِيضرِبوه، وعندما يَتَخَرج، لا أحد سيُعطيه وظيفةً مُحترمة."

تَنهدْتُ قائلة: " كلامُك فارغ- ما تتَعاطاه قد أَفْسَد عَقْلك. بابا لن يفعلَ شيئاً من ذلك."

ردَ ضاحِكاً: "سيفعل أيَ شيء لحِمايةِ ابنته الغاليه." انقلبَ مرة أُخرى على جَنْبِهِ وبَقينا هادئيْن." ، بدأ يتنفسُ بإنتظام وكَأنهُ بدأَ في النوم.

"يُستَحسَن أنْ تَدخُلَ لغُرفتِك قبلَ أن يَرجِعا."

أَصدْرَ شَخْرَة.

"خذْ هذا المِصباح اليَدوي". وَضَعْتُه في يَدِه.

عندما كانَ يسيرُ نحوَ داخلِ الدار، رأيْتُ أضواءَ سيارة بابا آتيةً نحوَ البيت. فتَحَ حارِسُ البوابة الليلي بعد أن سمعَ صوتَ بوق السيارة الآتيه. سمعْتُ صوتَ عَجلات السيارة تَسيرُ على حَصى المَدْخل، وصوتُ ماما وهي خارجة من السيارة وهي تقول: "مُنذُ متى وهذهِ الأضواءُ مُطفأَة؟"

حضنْتُ بابا وكأني أخشى من شيءٍ ما، وكأن حُضْنَهُ سيُذْهِبُ خوْفي. شَمَمْتُ فيه رائحةَ لحمٍ مَشْوي وَ ويسكي (والذي كان من المفترض أنه محظورٌ قانونياً في البلاد). تحَركْتُ بعيداً عنه. بَدَتْ ماما مُتعبة مُنْحنيةَ الأكتاف. وحتى في ضوءِ القمر رأيتُ الماسكارا المُلطخةَ حَولَ عينيْها. دَخلنا ونحنُ نتسلَق خُطَواتِنا نحوَ الشُرفه. لم يسألا عنِ الحفل، وطَفِقا يُكْمِلان ما كانا فيه من حديثٍ في السيارة.

سَمِعْتُ أبي يقول: "سوفَ يخرُج مُنتصِراً...لقد واجَهَ مُعارضةً من قبل."

ردَتْ عليه: "أتمَنى ذلك. ما يَضرُه يضُرنا."

فتحتْ ُبابَ البيت.عادَالتيارُ الكُهربائي فجأةًوجهَرَ يغَيَ ."